المرحلة : الثالثة المادة:تاريخ الدولة العباسية ١٣٢هـ - ٣٣٤ هـ

الفصل : الخامس عدد الساعات: ٢

مفردات المنهج

أولا. الدعوة العباسية ومرحلة تنظيمها وطبيعتها .

* قيام الخلافة العباسية .

* معركة الزاب

* أبو العباس ومهمة القضاء على العناصر الناهضة .

*أبو جعفر المنصور .

* بناء بغداد

* المهدي ونظام النظر في المظالم

الرشيد وعهد الرخاء والقوة

* المامون والنهضة العلمية والفكرية .

ثانيا. مواجهة المؤامرة السياسية الخارجية

* ابو سلمة الخلال – ابو مسلم الخراساني – البرامكة .

*مواجهة حركات الزندقة

* التصدي للشعوبية والشعوبين

* العلاقات الخارجية في عهد الازدهار مع بزنطة

مع دولة الفرنجة

* المعتصم واستخدام الجند الاتراك

جهود المتوكل لاقصاء النفوذ التركي ٢٣٢-٢٤٧ .

التسلط التركي وفوضى الحكم ٢٤٧ .

ثالثا. عودة النفوذ التركي

الخليفة المقتدر بالله ومظاهر الضعف العام .

ظهور منصب امير الامراء

الحمدانيون في الموصل في عصر النفوذ التركي.

المصادر :

١- تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي . د. خليل ابراهيم السامرائي واخرون

٢- التاريخ الاسلامي في العصر العباسي ١٣٢هـ - ٦٥٦هـ ج١ ، ج٢. د. طارق فتحي سلطان .

٢/٣
تاريخ

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

تاريخ
الدولة العربية الإسلامية
في العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٤٩ - ١٢٥٨م

تأليف

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

الدكتور طارق فتحي سلطان الدكتور جزيل عبد الجبار الجومرد

طبعة ثانية

الفصل الثالث *

العصر العباسي الثالث
عصر السيطرة البويهية
٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ـ ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م

بلاد الديلم قبل ظهور بني بويه :

تقع بلاد الديلم او بلاد جيلان في الجنوب الغربي لبحر قزوين ، ويحدها من الشرق منطقة طبرستان ، ومن الجنوب الجبال (جبال البرز) ، وهي عموماً منطقة جبلية وعرة ، لكل جبل فيها رئيس ، وسكانها يسمون بـ « الديالمة » أو الجيل . وهم موصوفون بالطيش وقلة الثبات في الامور[١] .

قاوم الديالمة الدولة العربية الاسلامية . وتصدوا لحركة الفتوحات العربية في العصر الراشدي ، وتمسكوا بمجوسيتهم ورفضوا الاسلام . واكتفوا بدفع الجزية الى سعيد بن العاص من قادة العرب المشهورين وقد اشار ابن خلدون الى هذا الامر بقوله : « كان هؤلاء الديلم والجيل على دين المجوسية ولم تفتح أرضهم أيام الفتوحات وانما كانوا يؤدون الجزية وكان سعيد بن العاصي (كذا)[٢] قد صالحهم على مائة ألف (درهم) في السنة وكانوا يعطونها وربما يمنعونها ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد وكانوا يمنعون الطريق من العراق الى خراسان على قومس ... »[٣] . ويبدو من هذا النص أن بلاد الديالمة وماجاورها استغلت اضطراب الاوضاع التي

* كتبه الدكتور خليل ابراهيم السامرائي

١ ـ ينظر ابن خوقل ، صورة الارض ، ص ٢٢٣ ـ الصابي ، المنتزع من كتاب التاجي ، ص ٢٠ ـ الاصطخري ، المسالك والممالك ص ١٢٠ ـ الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٥٥ .

٢ ـ سعيد بن العاص هو الاصح .

٣ ـ الخبر ، جـ ٤ ، ص ٤١٨ .

مرت بها الدولة العربية خلال فتنة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعصر علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) فاشتطوا في التمرد واصبح نتيجة ذلك طريق خراسان عبر قومس طريقاً غير امن بسبب تمرد أهل هذه المناطق(٤).

وإستغل الديلم المعاقل الجبلية لوطنهم الامر الذي أفشل اكثر من اثني عشر هجوماً للمسلمين قبل بداية القرن الثالث الهجري، منذ أن بدأت القوة العربية بالوصول اليهم.(٥)

ففي العصر الاموي بذلت الدولة العربية قصارى جهودها في نشر الاسلام بين سكان طبرستان وبلاد الديلم. الا ان أصبهبذ (حافظ الجيش)(٦) طبرستان كان يطلب العون دائماً من الديالمة عند تصديه للقوات العربية، وبالذات تعاون أهل المنطقتين في التصدي للقوات العربية بقيادة يزيد بن المهلب ـ الذي ولي أمر خراسان عام ٩٧ هـ ـ فخلقوا لها بعض المتاعب.(٧)

ويبدو ان المناطق الواقعة على شاطىء بحر قزوين ما بين أرمينية وطبرستان ـ من بينها بلاد الديلم ـ تمردت على الدولة العربية في عصر الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ)، فسار إليها والي ارمينية انذاك مروان بن محمد ـ الخليفة الاموي الاخير فيما بعد ـ فأرجعها الى الطاعة، وصالحه معظم حكامها، وذلك في عام ١٢١ هـ.(٨)

واستمر هذا التعاون بين المنطقتين في العصر العباسي الأول، حيث كا اصبهبذ طبرستان يحتمي ببلاد الديلم عندما تشتد عليه القوات العربية، كما حصل في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور.(٩) (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ)

وفي عصر الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) زاد خطر منطقة الديلم وماجاورها، حيث هرب الى بلاد الديلم يحيى بن عبدالله العلوي (أخو محمد

٤ ـ الطبري، تاريخ جـ ٤، ص ٢٧١ ـ جـ ٦، ص ٥٢٥ ـ وعن هذا الطريق ينظر، ابن رسته، الاعلاق النفسية، ص ١٦٣

٥ ـ طالب جاسم حسين، المقاومة العربية للتسلط البويهي، ص ٢٤.

٦ ـ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٨٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية، جـ ١٥، ص ٦٣.

٧ ـ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٣ ـ ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ ٧، ص ٢٩٠.

٨ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٥، ص ٢٤٠ ـ (خليل السامرائي، « حركة الاصبهبذ في طبرستان » مجلة المورخ العربي، العدد ٣٢، ص ٢٥٩.

٩ ـ الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ٥١١.

النفس الزكية) بعد معركة فخ عام ١٦٩ هـ ، فتوافدت اليه الناس من مختلف المناطق . فقلق الرشيدُ لهذا الامر ، ورأى ان هذه المنطقة ستخرج مرة اخرى من نفوذ الدولة العربية ، بعد ان قدّم من أجلها الاف الشهداء . فكان استنزال يحيى بن عبدالله من هذه المنطقة بأمان الرشيد حلاً لهذا القلق كما هو معروف .

ولما سار الخليفة الرشيد الى بلاد الري عام ١٨٩ هـ وفد إليه مرزبان بن جستان صاحب الديلم مقدماً الطاعة ، فاكرمه الرشيد واعاده الى بلاده .(١٠)

ولما أعطى الخليفة المأمون ولاية المشرق الى طاهربن الحسين ، قامت الامارة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ) . بموجب هذا الامر أصبحت بلاد الديلم وما جاورها تابعة إدارياً لهذه الامارة . ويبدو ان هذا الامر لم يرق لحكام هذه المناطق وبالذات إصبهبذ طبرستان الذي واصل تمرده على الدولة العربية ، مخالفاً الامارة الطاهرية زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) ، الى ان صلب بجانب المتمرد بابك الحزمي في سامراء .(١١) وكانت بدايات انتشار الاسلام في بلاد الديلم عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م عندما دخل الحسن بن زيد العلوي بلاد طبرستان وتملكها الى عام ٢٧٠ هـ / وقام مكانه أخوة محمد بن زيد الذي ملك بلاد الديلم .(١٢)

وازداد اعتناق الديالمة للاسلام عندما دخل الحسن بن علي العلوي الملقب بالاطروش(١٣) بلاد الديلم في حدود عام ٢٨٩ هـ واقام فيها نحو ثلاث عشرة سنة يدعو الديلم الى ترك المجوسية واعتناق الاسلام . ولما كسبهم الى جانبه دعاهم للخروج معه الى طبرستان في عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م فسيطر عليها بعد أن انتزعها من نفوذ السامانيين(١٤) .

مات الحسن بن علي الاطروش عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م بعد ان بلغ تسعاً وسبعين سنة ، واستمرت هذه الامارة الى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م حيث مقتل الحسن بن القاسم ،(١٥) وقد تنازع امرها قادة الجيش ، ومن اشهرهم سرخاب بن وهسوذان الذي

---

١٠ ـ الطبري ، تاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢١٦ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٩١ .

١١ ـ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٤٠٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٩ .

١٢ ـ الحميري ، الروض ، ص ٢٥٥ ـ ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٩٣ .

١٣ ـ لقب بالاطروش لانه ضرب على رأسه بسيف في حرب محمد بن زيد فطرش ، حمدان الكبيسي ، عصر الخليفة المقتدر ، ص ٤٤٤ .

١٤ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠

١٥ ـ ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٨٦ .

إشتبك في حروب طاحنة مع السامانيين ، ماكان بن كالي الديلمي ، وليلى بن النعمان ، واسفار بن شيرو يه ، ومرداويج بن زيار[١٦] ، وقد عرف هؤلاء بروح المغامرة العسكرية وبدأوا يتطلعون الى إحتلال مناصب عسكرية لهم في ظل إمارة ضعيفة تحتضر ، وهكذا نجد « ماكان بن كالي » يقفز لاحتلال موقع عمه الراحل سرخاب ويخلفه في قيادة الجيش . أما (أسفار بن شيرويه) الذي كان من أبرز قادة الجيش في إمارة الاطروش ، فقد انحاز الى السامانيين .[١٧] .

كان ليلى بن النعمان القائد الديلمي الاول الذي قتل وهو يقود جيش الديالمة ضد الامارة السامانية ، فتولى مكانه ماكان بن كالي القيادة . ولكن أحد قواد (ماكان) وهو أسفار بن شيرويه خرج عليه ، ولمع نجمه ، وتعاون مع قائد ديلمي أخر هو مرداويج بن زيار ، فأحرزا نصراً مؤزراً ضد ماكان . ولكن سرعان ماقتل أسفار في عام ٣١٦ هـ فآلت سلطانه الى مرداويج واخيه وشمكير[١٨] . وكان انتصار مرداويج هو السبب الاول المباشر في ظهور بني بويه .

ظهور بني بويه

المرحلة الاولى :

تنسب الامارة البويهية الى رجل فارسي يدعى بويه بن فناخسرو الملقب فيما بعد بـ (أبو شجاع)[١٩] . بدأ نجم هذه الاسرة في الظهور حينما التحق بويه واولاده الثلاثة : علي وحسن وأحمد ، بخدمة القائد مرداويج بن زيار الديلمي .[٢٠]

ومن سيئات هذه الاسرة . انها إنتحلت لها نسباً رفيعاً ـ وذلك بعد تسلطها ـ أرجعته الى الاسرة الفارسية الحاكمة ، لكي تدلل على عراقتها توكيداً على عمق النسب من فعال في ترسيخ مواقع الاسر الحاكمة .[٢١]

١٦ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

١٧ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٢٧ ـ احمد ثلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٢ ، ص ٤١٦ .

١٨ ـ احمد ثلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٢ ، ص ٤١٦ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٥٥ ـ فوزي ، مباحث في الحركة الشعوبية ، ص ٨٢ .

١٩ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٦

٢٠ ـ احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٦١ .

٢١ ـ الصابي ، المنتزع من كتاب التاجي ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

واشتطت هذه الاسرة الفارسية بنسبها الى أكثر من ذلك فادعت النسب العربي ، وذلك باتصالها بقبيلة ضبة العربية . : « ... ويقال أن الديلم قبيلة تنتهي الى ضبة .. »(٢٢) .

ولا يخفى ان محاولة اعطاء البويهيين النسب العربي ، ترتبط بالهدف السياسي الاول للاسرة البويهية ، المتمثل في محاولة ابتزاز منصب الخلافة في الدولة العربية الاسلامية .(٢٣) . ولكن هذه المحاولة قد فشلت ، اذ ان الصابي لم يستطع ان يوصل نسبهم الى قبيلة قريش صاحبة السيادة ، وفي ذلك يقول . ابن حسول : « ... ولو وجد الصابي طريقاً الى إدعاء نسب قريش لهم لأدعاه . وكان تحقق لعضد الدولة الامامة ، وتقر عليه الخلافة . وكان عضد الدولة جديراً بان يتدرع هذا العز وهو منه عار ، ويتبجح به وان لم يضرب فيه بفخار » .(٢٤) واذا كان الصابي معذوراً في انتحال النسب الرفيع للاسرة البويهية الفارسية . وذلك للتخلص من عقاب عضد الدولة البويهي(٢٥) . فانه غير معذور عندما جعلهم أعراباً صليبية .

ومع هذا ، فقد تصدى بعض المؤرخين لهذا الوهم وفي طليعتهم ابن خلدون وأجزم بقوله : « ... والحق أن هذا النسب مصنوع تقرب اليهم به من لا يعرف طبائع الانسان في الوجود ... »(٢٦) وبذلك تكون هذه النسبة الملكية الفارسية أو العربية قد انتحلت وافتعلت بعد انتقال الملك الى بني بوية لرفع شأنهم وتمجيد ذكرهم .(٢٧)

وتؤكد بعض الروايات على فقر هذه الاسرة .(٢٨)

وتوضح بأن أبا شجاع بويه واباه وجده من اسرة فقيرة تمارس حرفة صيد السمك ، أو حرفة الاحتطاب .(٢٩) وأولت بعض الروايات ارتفاع شأن هذه الاسرة

---

٢٢ ـ الصابي ، المنتزع ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ الحميري ، الروض العطار ، ص ٢٥٥ .

٢٣ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٣ .

٢٤ ـ تفضيل الاتراك على سائر الاجناد ، ص ٢٤ .

٢٥ ـ ابن الوردي ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ ـ الصابي ، المنتزع ، ص ٩ مقدمة المحقق

٢٦ ـ العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٦ .

٢٧ ـ الصابي ، المرجع السابق ، ص ١٩١

٢٨ ـ العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٩ .

٢٩ ـ ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٢٧٧ ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٥٩ ـ احمد شلبي ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٤١٤ .

على ضوء حلم رآه أبو شجاع بويه . والحلم بحد ذاته يدلل على مجوسية هذه الاسرة ، لارتباطه بالنار .(٣٠)

ولكن احتراف الجندية والدخول في خدمة القادة الديالمة مرتزقة بسبب فقر هذه الاسرة ، هو الذي مكنها من الظهور ، وذلك في أواخر أيام امارة الاطروش ، عندما كان (ماكان بن كالي) قائد جيش هذه الامارة .(٣١)

ويربط ابن الاثير عملية التحاق بني بوية بالقائد ماكان ، بمرحلة الاضطراب وخروج القواد الديلم والاتراك لامتلاك البلاد ، حيث قال : « وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم ، وخرج أولاد ابي شجاع في جملة من خرج ، وكانوا في جملة قواد ماكان بن كالي »(٣٢) . ويبدو ان (علي بن بوية) قد إحتل موقعاً كبيراً في جيش ماكان مما حدى به الى دعوة أخويه حسن ، وأحمد وادخلهما في هذا الجيش .(٣٣)

تعاون مرداويج بن زيار وماكان بن كالي على اسقاط اسفار بن شيرويه أو قتله لكنهما اختلفا بعد حين فانقض مردوايج على حليفه ماكان فهزمه(٣٤) . فكانت النتيجة أن سيطر مردوايج بن زيار على الري واصفهان وطبرستان في حوالي عام ٣١٤ هـ ، واسس إمارة وراثية عرفت باسم الامارة الزيارية . وباستيلائه على الاحواز كبر طموحه ، وبدأ يفكر جدياً في الهجوم على بغداد من اجل استعادة دولة الفرس بمركزها في لميسفون وكان يقول : « أنا أرد دولة العجم وابطل دولة العرب » .(٣٥)

اما بنو بوية فانهم بعد هزيمة ماكان إنحازوا الى مرداويج بن زيار بعد أن استأذنوا سيدهم الاول ماكان ، معللين الامر بخفض النفقات ، فأذن لهم ولغيرهم(٣٦) . رعى مرداويج بن زيار الوافدين عليه ولا سيما العائلة البويهية ،

---

٣٠ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٦ .

٣١ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٤٥ .

٣٢ - الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٦٧ .

٣٣ - مسكوية ، تجارب الامم ، ١ / ٢٧٧ - طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٢١

٣٤ - مجهول ، العيون والحدائق ، جـ ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٤ .

٣٥ - فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٥٦ .

٣٦ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٩ - ينظر ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٠٤ .

وقرر توظيف طاقاتهم العسكرية في إرساء امارته . فقلد علياً بن بوية (ولاية الكَرَج) الواقعة بين همذان واصفهان وذلك في عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، كما إستعان مرداويج بالحسن بن بوية واخيه أحمد في أعمال اخرى مهمة[٣٧]

وبذلك بدأت هذه الاسرة بالظهور على مسرح الاحداث مستغلة اضطراب الامور ، واستطاعت تركيز نفوذها في المنطقة التي يمكن أن نسميها بالمجال البويهي قبل غزو العراق والسيطرة عليه .

المرحلة الثانية : ٣١٨ ـ ٣٢٢ هـ / ٩٣٠ ـ ٩٣٣م .

إن المجال الذي تنفذ به آل بويه في هذه المرحلة، هو خط يمتد من بحر قزوين شمالاً الى الخليج العربي جنوباً ، ويفصل بين المشرق البعيد وبين العراق مركز الخلافة العباسية .

ونشأ هذا المجال لان فراغاً كان موجوداً في الخط الذي سارت فيه الهجرة ؛ فالمشرق بعد زوال الامارة الطاهرية آل أمرهُ الى إمارتين : الامارة الصفارية ، والامارة السامانية .

فالامارة السامانية كانت تقوم في مجال بعيد هو أقليم ماوراء النهر ، إما الامارة الصفارية فقامت في أقصى أرض المسلمين من ناحية ثغر الهند في إقليم سجستان ، وهو أقليم بعيد ايضاً عن العراق . ولما استطت الامارة الصفارية في موقفها تجاه الخلافة العباسية واصطدمت معها بسبب نزعتها الفارسية العنصرية ، إنتهى أمرها الى الزوال في عام ٢٨٩ هـ / ٩٠٣ م[٣٨] ، فأصبح المشرق كله بيد الامارة السامانية . وكان العراق وهو مقر الخلافة العباسية يمر بفترة من الضعف والاضطراب بسبب ظروف العصر العباسي الثاني (٢١٨ ـ ٣٣٤هـ) ، وهو عصر الفوضى العسكرية وسيطرة الجند الاتراك ، فكان الحد الفاصل بين الاقليم الذي تديره الخلافة مباشرة ، وبين الاقليم الذي تديره الامارة السامانية ، هو المجال الذي سارت فيه القوة البويهية الديليمة .

٣٧ ـ مسكوية ، تجارب الامم ، جـ ٢١ ص ٢٧٧ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ ـ العبادي ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ ـ شلبي ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤١٧ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥٠٤

٣٨ ـ العالم الاسلامي ، ص ٤٦٤ ـ حامد غنيم ابو سعيد ، عصر الدول الاقليمية ، ١ / ٢٩٨

فكانت قوة وسطاً بين الخلافة والامارة السامانية . ثم تطور أمرها بعد ذلك ففرضت سيطرتها على العراق مقر الخلافة العباسية .(٣٩)

حاولت الخلافة العباسية بكل وسيلة أن تمنع هذه الهجرة البويهية ، ففوضت امر هذه المنطقة مع إقليم خراسان وبلادماوراء النهر الى السامانيين ، واستطاع السامانيون تقويض أركان الامارة العلوية في طبرستان وذلك في عام ٢٨٧ هـ ، الى إن قام الاطروش في عام ٣٠١ هـ ، ولجأ زعماء العلويين الى داخل بلاد الديلم . كما استطاع السامانيون ان يتحالفوا مع زعماء الديلم ايضاً ، فوقفت الهجرة نوعاً ما .

ولكن تيار الهجرة الديلمية بدأ في اوائل القرن الرابع الهجري بقوة ، فظهرت إمارة ديلمية أخذت مكان الامارة العلوية ، وهي الامارة الزيارية ، واوجدت لها مكاناً في اقليم الجبل . وهنا حاولت الخلافة العباسية ايقاف تيار الهجرة ، فاتفقت مع مرداويج بن زيار ، وأقرته على حكم مناطقه ، لكي تبقى العلاقات سلمية بينه وبين الخلافة العباسية(٤٠) . ولكن الظروف لم تساعد الخلافة العباسية على تنفيذ خطتها ، فما كاد مرداويج بن زيار يستقر في إقليمه وينال اعتراف الخلافة ، حتى قصده الديلم من كل ناحية ، فلما كثروا وزعهم على الجهات المختلفة ، فأعطى علي ابن بويه ولاية الكَرَج عام ٣١٨ هـ ، كما ذكرنا .

فالامارة الزيارية الفارسية هي التي مهدت الطريق لظهور الامارة البويهية الفارسية ، فملأت الفراغ الممتد من بحر قزوين الى مدينة شيراز أولاً ، ثم سيطرت على العراق ثانياً .(٤١)

قبل أن يصل علي بن بويه الى ولاية الكَرَج ارسل مرداويج أوامره الى وزيره أبي عبدالله الحسن بن محمد الملقب بابن العميد(٤٢) ، واخيه وشمكير بن زياد اللذين كانا في الري ليمنعا علي بن بويه من الوصول الى مقر ولايته . لكن الوزير لم يتمثل لأوامر مرداويج وانما سهل لعلي مهمته لجميل له عليه .(٤٣)

---

٣٩ ـ ايضاً ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

٤٠ ـ ابن الاثير ، الكامل ٨ / ٢٧٨ .

٤١ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

٤٢ ـ هو والد وزير عضد الدولة ابو الفضل بن العميد والملقب بالاستاذ الرئيس ـ مسكويه ، تجارب الامم ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

٤٣ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ .

أدرك علي بن بويه بانه في موقف حرج تجاه سببه في ولايته الجديدة . ولا سيما حين أرسل اليه مرداويج جنداً من المهاجرين الديالمة يتقاضون أرزاقهم من دخل الولاية ، وذلك لاضعافه ، فاستفاد علي بن بويه من هؤلاء وجعلهم من اتباعه بعد ان أغدق عليهم الاموال ، ثم تودد الى الرعية وكسب تأييدها تحسباً لمواقف مرداويج ضده .(٤٤)

فشلت جهود مرداويج في استمالة قادة الديلم الذين كسب ودهم علي بن بويه ، ثم قرر السير الى أصفهان لكي يكون في مكان لاتصل اليه يد مرداويج أولاً ، ومن ثم يدخل في طاعة الخلافة لتقوية نفوذه ضد مرداويج .(٤٥)

حاول علي بن بويه تجنب الصدام العسكري مع والي اصفهان المظفر محمد بن ياقوت ، وعرض عليه الدخول في طاعة الخليفة ، فرفض والي اصفهان ، فكانت الحرب وذلك في عام ٣٢١ هـ ، ومما رجح كفه علي بن بويه ، ان جماعة من الديلم عددهم (٦٠٠) رجل في جيش والي اصفهان ، انضموا اثناء المعركة الى القوة البويهيةفكانت المعركة في صالح علي بن بويه ، وانهزم والي اصفهان ودخل البويهيون المدينة وسيطروا عليها .(٤٦)

أدرك مرداويج بن زياد خطورة أمر علي بن بويه بعد سيطرته على مدينة اصفهان ، فحاول أولاً أستمالة علي بن بويه اليه والتودد له موعداً اياه بالدعم العسكري ، ومن ناحية اخرى أرسل الى اخيه وشمكير قوات كبيرة لمباغته علي بن بويه . ويبدو ان علي بن بويه أدرك الامر وتحسب له ، فرحل عن أصفهان وسار الى أرجان تقع في منتصف المسافة بين اصفهان وشيراز)(٤٧) وعليها انذاك ابو بكر بن ياقوت الذي ترك المدينة فاراً الى مدينة (رام هرمز) ، فدخلت القوات البويهية مدينة أرجان بدون قتال(٤٨) .

أدرك علي بن بويه حراجه أمره في مدينة أرجان ، وبخاصة بعد تحالف مرداويج وابن ياقوت ضده ، فترك أرجان وسار الى مدينة النوبندجان (تقع في

---

٤٤ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٩٩ .

٤٥ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥٠٥ .

٤٦ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٧٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ .

٤٧ ـ ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .

٤٨ ـ مسكوية ، تجارب الامم ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٢٧ .

منتصف المسافة بين أرجان وشيراز)، وذلك في عام ٣٢١ هـ، فدخلها دون قتال كبير (٤٩).

بدأ علي بن بويه بعد سيطرته على النوبندجان يستعد للزحف الى مدينة شيراز. فعمل أولاً على منع وصول الامدادات الى هذه المدينة، فبعث اخاه الحسن الى كازرون وتقع غربي شيراز، وذلك لعزل شيراز عن المنطقة الغربية، وبعث جيشاً أخر الى مدينة اصطخر ليعزلها عن المنطقة الشرقية. وقد أفلحت هذه الجيوش في مهمتها. (٥٠)

تقدم علي بن بويه نحو مدينة شيراز. ودارت رحى الحرب عند قنطرتها وذلك في عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٢ م وسميت هذه المعركة بمعركة القنطرة. كان النصر فيها للقوات البويهية فدخلها علي بن بويه واتخذها مقراً له وشعر بها بالامان لبعدها عن نفوذ مرداويج. (٥١)

المرحلة الثالثة ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ / ٩٣٣ ـ ٩٣٧ م

في هذه المرحلة حاول علي بن بويه تدعيم ملكه في اقليم فارس وقاعدته شيراز التي سيطر عليها. فبدأ بتنظيم الامور المالية وبخاصة بعد سيطرته على اموال آل ياقوت الذين كانوا يحكمون شيراز. (٥٢)

كما سلك علي بن بويه سياسة ملتوية لتقوية مركزه، واستطاع تأمين وجوده بهذا الاقليم. حيث بدأ بمراسلة الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) ووزيره أبي علي بن مقلة وطلب منه التقليد مقابل (الف لف درهم)(٥٣). ولما كانت ظروف الخلافة العباسية مضطربة وحاجتها الى الاموال ملحة، وافقت على ذلك وارسلت له التقليد في عام ٣٢٢ هـ. (٥٤) وهدف علي بن بويه من هذا التقليد تعزيز نفوذه أولاً، ومن ثم التصدي لخطر مرداويج ثانياً. وبدأ علي بن بويه يماطل في

---

٤٩ ـ ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٤٢٨ ـ العالم الاسلامي، ص ٥٠٦.

٥٠ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٨، ص ٢٧٣ ـ ابن العبري، تاريخ ص ٢٧٩ ـ العالم الاسلامي، ص ٥٠٧.

٥١ ـ مجهول، العيون والحدائق، جـ ٤، قسم ٢، ص ٢٢ ـ ابن الاثير، الكامل جـ ٨، ص ٢٧٢ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٣ ص ٢٤٤ ـ العالم الاسلامي، ص ٥٠٧.

٥٢ ـ ينظر، ابن الاثير، الكامل، جـ ٨، ص ٩٥.

٥٣ ـ ينظر، مسكويه، تجارب الامم، جـ ١، ص ٢٩٩.

٥٤ ـ ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٤٢٨.

دفع الاموال عنما وصل اليه رسول الخليفة العباسي.[٥٥] وكان المهم ان التقليد والياً شرعياً فأمن بذلك جانب الخليفة. وأمن من ناحية اخرى آل ياقوت الذين كانوا يتحفزون للوثوب على ماغتصبه منهم. وفي الوقت نفسه أمن جانب مرداويج.[٥٦] ولما كان مرداويج صاحب تقليد من الخليفة فله مناطق محدوده لايتعداها. فاصبح امره كحال علي بن بويه. فلما حاول مرداويج ارسال قواته صوب الجنوب لملاحقه علي بن بويه منعه الخليفة وطلب اليه الرجوع الى الحدود المرسومة في تقليده. فتراجع مرداويج لكي لايظهر بمظهر المتمرد على أوامر الخليفة. وعزز علي بن بويه هذا الموقف فعرض في مرونة سياسية الدخول في طاعة مرداويج وبرهن له على ذلك بان قدم أخاه الحسن رهينة.[٥٧] وبهذين العهدين. العهد من الخليفة. والعهد مع مرداويج أمن علي بن بوية على خدوذ إمارته واصبح مركزه قوياً فقصده الرجال من كل ناحية.[٥٨]

وفي عام ٣٢٣ هـ خدمت الظروف علي بن بويه. ففيها قُتل مرداويج بن زياد من بعض جنوده. وكان من نتيجة ذلك هروب الحسن بن بويه الذي كان رهينة عند مرداويج.[٥٩] وتولى أمر الامارة الزيارية وشمكير بن زياد الذي واجه صعوبات سياسية وكان أقل كفاءة من أخيه.[٦٠] كما انه في الوقت نفسه استطاع علي بن بويه من كسر قوة إبن ياقوت العسكرية في موقعة أرجان عام ٣٢٣ هـ عندما حاول إعادة نفوذه على إقليم الاحواز بدعم من الخلافة العباسية.[٦١]

ولما كانت امور الخلافة العباسية مضطربة في هذه الفترة. كما ان الامارة السامانية مشغولة بواجبها الجهادي في منطقة الثغور الشرقية لم تزج نفسها في مثل هذه الامور المعقدة. وكان إقليم فارس الذي استقر به علي بن بويه خارج نفوذ

---

٥٥ ـ مسكويه، الهيون والحدائق، جـ ٤، قسم ٢، ص ٢٤ ـ طالب جاسم حسن، المقاومة العربية، ص ٤٠.

٥٦ ـ العالم الاسلامي، ص ٥١٠.

٥٧ ـ شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، جـ ٢، ص ٤١٧ ـ فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ص ٤٥٦.

٥٨ ـ العالم الاسلامي، ص ٥١١.

٥٩ ـ ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ١، ص ٣٩٤ ـ ابن خلدون، ٤ / ٤٢٩.

٦٠ ـ العالم الاسلامي، ص ٥١٢.

٦١ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٨، ص ٩٩.

الامارة السامانية . كما كان أخر منطقة من اناطق الخاضعة للخلافة . لهذا لم يتدخل السامانيون وتركوا الامور على ماهي عليه . وكان من نتيجة ذلك ان أصبح علي بن بويه متمكناً من إقليمه معترفاً به من الجميع آمناً من أي هجوم . كما أصبح في إمكانه أن يوسع إمارته . وان يجعل من إقليم فارس مركزاً لدولة أكبر ، تجمع الى هذا الاقليم كل الاقاليم ذات العصبية الايرانية .(٦٢)

وأول الاقاليم التي فكر علي بن بويه بفتحها هو اقليم كرمان الذي يقع الى الشرق من اقليم فارس ، واقليم الاحواز الذي يقع الى الشمال منه .

ففي عام ٣٢٤ هـ أرسل علي بن بويه قواته الى اقليم كرمان بقيادة أخيه الأصغر أحمد الذي استطاع السيطرة على هذ الاقليم بعد فرار واليه . وقدم سكان الاقليم الطاعة لأحمد بن بويه وبخاصة روساء القفص والبلوص . الا ان أحمد بن بويه "عاملهم بقسوه فحاربوه فتغلبوا عليه . وقطعوا يده اليسرى من الساعد ، وبعض اصابع يده اليمنى ، واشراف على الموت الا ان زعيم القفص البلوط عالجه واعتذر من اخيه علي الذي قام بدوره بعزل أخيه المتهور وولى الاقليم شخصاً آخر اكثر مرونة .(٦٣) وبذلك أمن علي بن بويه ظهره من ناحية الشرق بالاستيلاء على إقليم كرمان .(٦٤)

والهدف الاخر لعلي بن بويه هو إقليم الاحواز لانه يعتبر (ممر) العراق ، وممرّ فارس . أي ان القوة التي تفرض سيطرتها على اقليم الاحواز تستطيع ان تسد كل طريق على القوات المقيمة في اقليم فارس . كان ان اقليم الاحواز بالنسبة لبني بويه هو الممر الذي يوصلهم ببلادهم الاولى في الشمال . كما هو الممر الذي يوصلهم الى العراق . فمن هنا جاءت أهمية هذا الاقليم .(٦٥)

في عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ بدأت الفرصة مواتية لعلي بن بويه لغزو الاحواز ، وبخاصة بعد ان هرب أبو عبدالله البريدي المتمرد على الخلافة العباسية الى علي بن

---

٦٢ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥١٤ .

٦٣ ـ مسكويه ، تجارب الامم ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ وبعدها ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٠ .

٦٤ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥١٦ .

٦٥ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥١٦ .

بويه فأثار فيه طمعه في احتلال العراق وهون عليه أمر الخليفة .[٦٦] ففكر علي بن بويه أولاً في إحتلال الاحواز .

تحركت القوات المشتركة ، البريدية والفارسية في عام ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م نحو الاحواز بعد ان كسرت قوات بجكم الذي تصدى للبريدي منذ البداية ،[٦٧] ، وسيطرت على الاحواز دون عناء كبير ، واتخذها البويهيون قاعدة لغزو بغداد .[٦٨]

وفي الوقت نفسه قام الحسن بن بويه باحتلال الري مركز الزياريين ، ودخل بعد ذلك في تحالفات محلية مع بعض الامراء ، واستطاع بعدها أن يفرض سيطرته على جرجان وطبرستان ، وفي الوقت نفسه إعترف به الساماتيون حاكماً على الري واقليم الجبال مقابل أموال سنوية يدفعها لهم .[٦٩]

المرحلة الرابعة ٣٢٦ ـ ٣٣٤ هـ / ٩٣٧ ـ ٩٤٥ م

خلال هذه المرحلة ، قام الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) باستحداث منصب أمير الامراء وقلده لوالي واسط محمد بن رائق كأجراء لحل مشكلة الخلافة المالية المستعصية ، ومحاولةً من الخليفة ايضاً للتخلص من تسلط الاتراك وجشعهم . ولكن امرة الامراء عجزت عن إقرار الامور في العراق ، وعجزت عن حل المشكلة التي كانت تواجه الخلافة ، نتيجة لتنازع القواد ، وتحزبات الاجناد .[٧٠] وسوف نشير الى هذا الامر فيما بعد . إستغل البويهيون حالة الضعف التي تمر بها الخلافة العباسية . فبدأوا يمهدون لغزو العراق في هذه المرحلة . ففي عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م ، وردت الاخبار من واسط بان احمد بن بويه قصدها ، فتصدى له الخليفة الراضي واجبره على الانسحاب الى الاحواز .[٧١]

---

٦٦ ـ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

٦٧ ـ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، مجلد ١ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ .

٦٨ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٤٢ .

٦٩ ـ شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٣ ، ص ٤١٨ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٥٧ .

٧٠ ـ العالم الاسلامي ، ص ٥١٨

٧١ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٤٢ .

وفي عام ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م جرت محاولة اخرى لاحتلال واسط أشرف عليها الحسن بن بويه وذلك من أجل حماية الاحواز قاعدة التوسع البويهي نحو العراق. من خطر ابن البريدي الذي بات يهددها. لاختلاف حصل بينه وبين احمد بن بويه. فضلاً عن تعويض الحسن بن بويه، المطرود من اصفهان على أيدي قوات وشمكير بن زياد ملكاً جديداً.(٧٣).

فشلت هذه المحاولة ايضاً لتقدم قوة عسكرية من بغداد لقتاله. فادرك الحسن بن بويه خطورة الموقف، فانسحب الى اصفهان واسترجعها من أيدي قوات وشمكير.(٧٣)

توقفت المحاولات البويهية لاحتلال العراق منذ سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م حتى سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م حيث سار أحمد بن بويه الى البصرة لقتال البريديين، وإدعى بان الخليفة رأسله بذلك.(٧٤) ويبدو ان الامر مجرد إدعاء، حيث استغل أحمد بن بويه حالة الاضطراب بعد مقتل ابن رائق لاحتلال العراق. ومع ذلك فقد إضطر ايضاً للانسحاب، لانضمام جماعة من قوداه الى البريديين.(٧٥).

وفي سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٢ م حاول أحمد بن بويه مرة اخرى إحتلال العراق، مستغلاً تحسن علاقته مع البريديين، فتقدم الى واسط وتطلع بانظاره الى بغداد، ولكن تصدت له قوة قتالية تحركت من بغداد واشتبكت مع القوات الغازية بضعة عشر يوماً في موضع (قباب حميد)، فانهزم الغزاة وانسحبوا الى السوس، بعد ان وقع في الاسر عدد من قادة الجيش البويهي.(٧٦)

---

٧٢ ـ مجهول، العيون والحدائق، جـ ٤، قسم ٢، ص ٨٦ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٨، ص ٣٦٠.

٧٣ ـ ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

٧٤ ـ مجهول، العيون والحدائق، جـ ٤، قسم ٢ / ص ١٢٥.

٧٥ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٨، ص ٤٠٤.

٧٦ ـ مجهول، العيون والحدائق، جـ ٤، قسم ١٢، ص ١٢٨ ـ ١٣٩.

وفي خلافة المستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ) عاد أحمد بن بويه فاحتل البصرة وواسط في عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، فتصدت له قوة عسكرية بقيادة توزون ، أجبرت حمد بن بويه على الانسحاب مدحوراً الى الاحواز ، وعاد توزون الى بغداد .(٧٧)

في محرم من عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م مات توزون في بغداد . فاضطربت الامور وتولى الامر ابن شيرزاد فزاد الامر سوءاً . فضلاً عن أن بعض العناصر الاجنبية في الدولة العربية كانت تعمل في السر والعلن على هدم هذه الدولة ، حيث كان القائد (ينال كوشه) التركي الذي عينه ابن شيرزاد على واسط ، يراسل احمد بن بويه ويدعوه لاحتلال بغداد .(٧٨)

بهذا الظرف المضطرب تقدم أحمد بن بويه ودخل بغداد وذلك في شهر جمادي الاولى من عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م(٧٩) ، وبذلك بدأ الاحتلال البويهي الفارسي للعراق ، في عصر الخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) .

التسلط البويهي وتجاوزاته :

ظهرت خلال العصر الذي تسلط فيه البويهيون ، تجاوزاتهم التي تعبّر عن حقدهم الفارسي ، وتتمثل هذه التجاوزات
فيما يأتي :

١ ـ محاولة افساد العقيدة الاسلامية .
٢ ـ محاولة هدم الشخصية العربية .

الا ان هذه المحاولات باءت بالفشل ، حيث تصدى للغزو البويهي الرد العربي الذي عبر نفسه بمقاومة عنيفة

ـ محاولة إفساد العقيدة الاسلامية

لم يستجب الديالمة للاسلام في البداية ، ورفضوا إعتناق مبادئه على الرغم من إفتتاح بلادهم وخضوع ساكنيها لقادة الفتح العربي منذ العصر الراشدي . وظلوا على

٧٧ ـ الذهبي ، دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٥١ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٤٤ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٥٧ .
ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٤٨ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٤ .
ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

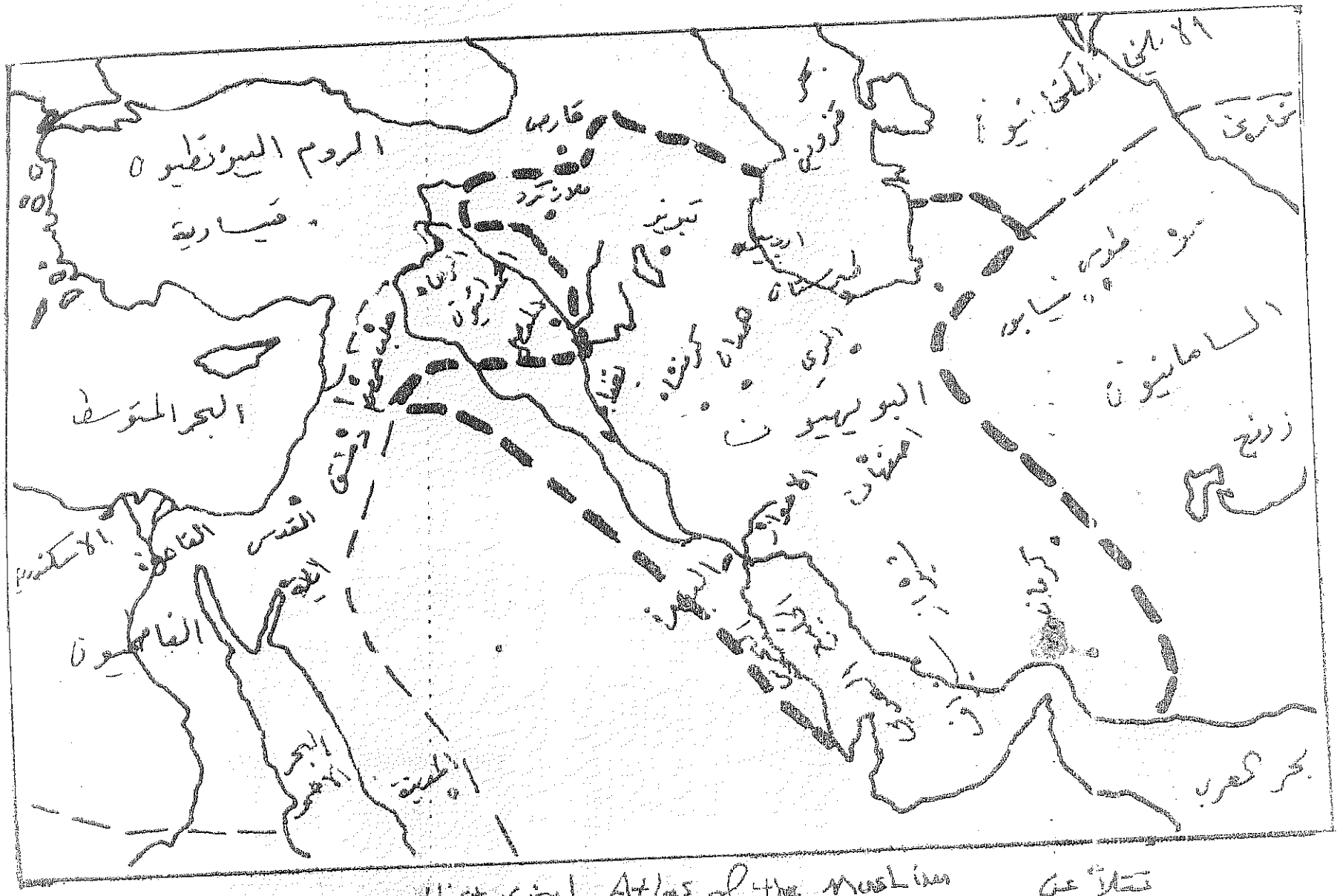

Historical Atlas of the Muslim People

خارطة تمثل اوسع ماوصل اليه النفوذ البويهي (القرن الرابع الهجري)

موقفهم هذا حتى بداية القرن الرابع الهجري ، حيث أسلم بعضهم على يد الحسين بن علي الاطروش .[1]

ولايمكن ان يفسر رفض الديلم للاسلام على مدى ثلاثة قرون سابقة لاسلامهم مع وضوح العقيدة وسماحة المبادىء ، إلا على أساس عمق علاقتهم الروحية مع دياناتهم السابقة . ولما كان إسلامهم متزامناً مع نشاطهم السياسي في بداية القرن الرابع الهجري ، فإن دخولهم الاسلام كان لاغراض سياسية وبدافع المصلحة العنصرية . وهذا ديدن الفرس دائماً .[2]

ومن الاساليب التي إنتهجها البويهيون لافساد العقيدة الاسلامية مايأتي :

أ- اظهر البويهيون تعاطفاً مع أفكار وعقائد مناهضة للعقيدة الاسلامية ، ففي سنة ٣٤٠هـ/١٩٥١م تساهل الحكام البويهيون مع رجل إدعى الربوبية .[3]

ب- غض البويهيون الطرف عن دعاة أفكار الحلول والتناسخ الهدامة ذات الجذور الفارسية .[4] فقد زعم بعضهم أن أرواح الانبياء والصديقين قد حلت بهم. كما زعم بعضهم الاخر ان روح علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قد حلت بهم ، وزعمت إمراة أن روح فاطمة الزهراء قد حلت بها ، وادعى رجل آخر بانه جبرائيل . ولما حاول الوزير المهلبي إستئصالهم وانزال العقوبة بهم ، حماهم معز الدولة أحمد بن بويه . الذي أمر باطلاق سراحهم .[5]

جـ- أدخل البويهيون الى مراسيم الاحترام في الدولة العربية ، عادة تقبيل الارض بين أيدي الخلفاء . ومن المعروف ان هذه العادة ليس لها أصل في الاسلام بل هي الى الوثنية أقرب إنتساباً . حيث كان الناس في الجاهلية اذا دخلوا على الملوك قبلوا الارض بين أيديهم .[6] ولذا كان هدف البويهين في إحياء هذه العادة هو هدم العقيدة الاسلامية باساليب تتنافى واصولها . وجاء في رسوم دار الخلافة ماينفي هذه العادة عن الاسلام ويؤكد عدم استخدام

١- المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣٧٣.
٢- طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٠١ .
٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ٢٢٤ .
٤- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣٠٧.
٥- ابن الاثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٤٩٥- النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣٠٧.
٦- طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٠٢ .

المسلمين لها : « فلم يكن من العادة القديمة ان يقبل الارض . ولكنه اذا دخل ورأى الخليفة قال : السلام عليك ياامير المؤمنيين » .[٧]

د ـ في الوقت الذي يحرم به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الزنى ، ترى عضد الدولة البويهي ينحاز الى مبادىء مزدك التي تبيح المحارم[٨] . ولكن باسلوب أخر . حيث يجعل عضد الدولة من الزنى مهنة مرخصة وفرض الضرائب عليها .[٩]

هـ ـ أدرك البويهيون ، كما أدرك أسلافهم الفرس ، عدم امكانية افساد العقيدة الاسلامية . مالم يكن تحركهم تحت ستار الاسلام ، واعتناقهم زيفاً لأحد المذاهب الاسلامية . حيث رفعوا الشعار العلوي وتستروا به ، لاحباً في البيت العلوي الشريف ، بل لادراكهم بان هذا الشعار ، هو الشعار الوحيد القادر على منافسة العباسيين ، كما هو الشعار المقبول عند عموم المسلمين .[١٠]

لتوكيد تستر البويهيين في الاسلام ، ورفعهم للشعار العلوي لاغراض سياسة لا اعتقادية ، هو موقفهم من أبي الحسن مقدم العلويين في عهدهم (محمد عن عمر بن يحيى)[١١] ، الذي اعتقله عضد الدولة البويهي عندما خاف من قوة نفوذه وتعاظم أمره . وظل معتقلاً حتى ولي الامر شرف الدولة بن عضد الدولة فاطلقه من السجن ، ولكن سرعان ماعادت مخاوف البويهيين من تزايد نفوذه ، فأمر بهاء الدولة بن عضد الدولة بسجنه مرة اخرى ومصادرة امواله . .[١٢] كما ان البويهيين احجموا عن اقامة خليفة علوي بدل الخليفة العباسي ، واذا كان معز الدولة أحمد بن بويه قد فكر في الغاء الخلافة العباسية ، والبيعة للمعز لدين الله العلوي .[١٣] فكان يرمي من ذلك خدمه الطموح البويهي في الاستيلاء على العالم الاسلامي من خلال تعميق الانشقاق

---

٧ ـ الصابي ، ص ٣١ .

٨ ـ ينظر ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٦٥ .

٩ ـ ادم متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .

١٠ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٠٣ .

١١ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ١١ / ٣٢٧

١٢ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ٧ / ٢١١ ؛ الذهبي ، العبر ٣ / ٤٧ ؛ ابن كثير ، البداية ١١ / ٣٢٧

١٣ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٤٥٢ .

واثارة التطاحن بين أجزائه . ولما علم الحاكم البويهي ان هذا النهج لا يخدم اغراض البويهيين ولا يحقق سيادتهم ، ابعد هذه الفكرة وتركها بمشورة أحد رجاله .(١٤)

وهكذا أثر معز الدولة احمد بن بويه المصلحة البويهية التي اعتبرها فوق الاعتبارات الاخرى . فان كان قد أسلم وتمذهب فعلاً ، فانه والحالة هذه قد انحرف وخان معتقده . وبهذا تبدو لنا حقيقة هذا المتغلب الأعجمي الذي لا يرى للسيادة الفارسية بديلاً .(١٥)

و ـ استعان الغزاة البويهيون بوزراء معظمهم من الفرس ، كما قربوا اليهم بعض الرجال واوصلوهم الى الوزارة ، وهم معروفون باستخفافهم باصول الشريعة الاسلامية ، وميلهم الى ظاهرة التنجيم والقول بالطبيعة ، أمثال ابو الحسن علي ابن محمد بن جعفر الاصبهاني ، وعيسى بن مروان النصراني .(١٦)

من وسائل الغزو البويهي لافساد العقيدة الاسلامية انتهاك حرمة القضاء والمؤسسات الاخرى ذات العلاقة به . وذلك لان القضاء منصب عظيم الاهمية ، ومرتبته تلو مرتبة النبوة ، وان الله سبحانه وتعالى أرسل الانبياء للناس ليحكموا بينهم بالعدل .(١٧) ومن ذلك جاء انتهاك البويهيين لحرمة القضاء .

ففي عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م قام معز الدولة احمد بن بويه بتضمين منصب قاضي القضاة بمبلغ قدره مائتا الف درهم سنوياً .(١٨) وتعهد المتضمن ابو العباس عبدالله ابن الحسن بن أبي الشوارب بارسال هذا المبلغ سنوياً الى خزينة معزالدولة البويهي .(١٩)

---

١٤ ـ ينظر ، احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٦٥ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٨١ .

١٥ ـ محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ، ص ١٢ ـ طالب حاسم مسن ، المقاومة العربية ، ص ١٠٤ .

١٦ ـ ابن دحية الكلبي ، كتاب النبراس ، ص ١٢٥ .

١٧ ـ سورة البقرة ، اية ، ٢١٣ ـ سورة المائدة ، اية ٤٩ ـ ينظر ، طاهر القاسمي ، نظام الحكم ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ محمد ضيف الله بطانية « القضاء في الاسلام » مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٣ ، ص ١٩٦ .

١٨ ـ مسكوية ، تجارب الامم ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ ـ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٣٦ .

١٩ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٢٨ .

وقد أكد بعض المؤرخين بان البويهيين هم أول من باع الشعب وضمن القضاء في التاريخ .[٢٠] ووصف بعضهم الاخر هذا الأمر الجلل بانه من المصائب الكبيرة ، أو من الاعمال القبيحة التي قام بها البويهيون .[٢١]

أنكر الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) على البويهيين تضمين القضاء ، وأمر بمنع دخول القاضي عليه ورفض حضوره الموكب وامتنع ان يخلع عليه .[٢٢] الا ان الحاكم البويهي المتسلط لم يكترث بموقف الخليفة هذا ، بل أطلق يد القاضي الذي أرهق الناس وابتز من الرشاوي مالا يحصى لكي يسدد مبلغ الضمان .[٢٣] وقد صور بعض الشعراء هذا الامر بالقول :

مذل الدولة بن بويه يقضي له ابن أبي الشوارب بالضمان
تصرم ملكك ذا وقضاء هذا وصارت سنة طول الزمان .[٢٤]

ولم يكتف البويهيون بتضمين القضاء ، بل ضمنوا الحسبة ايضاً . وتولى أمرها أشرار الناس وقد وصفوا بالمجون والسخف والتردي أمثال الحسن بن أحمد الحجاج الذي اختاره معز الدولة احمد بن بويه محتسباً لمدينة بغداد .[٢٥] وفي الوقت نفسه ضمن البويهيون منصب الشرطة .[٢٦]

من كل هذا نرى : ان التسلط البويهي أدخل عائدات مؤسسات العدل في حسابات وارصدة الغزو البويهي . فلا غرابة ان يُظلم الناس في ظل التسلط البويهي ، وأي عدل يرتجى من حاكم يرى مؤسسات القضاء عبارة عن مؤسسات تمويلية لخزانة الدولة .[٢٧]

---

٢٠ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٣٢٨ .
٢١ – الذهبي ، العبر جـ ٢ ، ص ٢٨٤ – ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ .
٢٢ – ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢ – ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٣٦ .
٢٣ – طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٢٢ .
٢٤ – ابن الوردي ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٤٠٠ .
٢٥ – ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢١٦ – ابن الاثير الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٣٦ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٢٣٧ .
٢٦ – ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٣٦ – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠٠ .
٢٧ – طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ١٢٤ .

٢ ـ محاولة هدم الشخصية العربية

لما كان الغزو البويهي يمثل صورة من صور الحقد الفارسي على الامة العربية ، فقد حاول الغزاة هدم الشخصية العربية من خلال تجاوزاتهم على الخليفة العباسي عن طريق الخلع والقتل ، ومن خلال اذلال الشعب بوسائل مختلفة

أ ـ التجاوز البويهي على الخلفاء

كان الخليفة العباسي (العربي القرشي) الرئيس الروحي والزمني للدولة العربية ، وهو رمز السيادة العربية . فكانت أولى اجراءات البويهيين اذلال هذه الشخصية بوسائل مختلفة .

ففي ٢٢ جمادي الاخرة من عام ٣٤٤ هـ / ٩٤٥ م سار معز الدولة بن بويه الى دار الخلافة وتظاهر باحترام الخليفة العباسي المستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ)[٢٨] . الا انه في الوقت نفسه هيأ مجموعة من الجند سحبوا الخليفة من مجلسه ذليلاً وأخذوه الى دار معز الدولة البويهي ماشياً . وهناك سملت عيناه وسجن الى ان مات .[٢٩]

وبعد خلع الخليفة المستكفي بالله ، تولى منصب الخلافة المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) ولما كان البويهيون هم الذين أتوا به الى منصب الخلافة ، لذا جعلوه خليفة مستضعفاً ، فتفردوا بالامر ، واهملوا كل مايتعلق بالخليفة . ولذا لم يبق للخليفة الا الاسم .[٣٠]

وبذلك أصبح احمد بن بويه هو الحاكم المطلق ، وخص نفسه بالوزارة دون الخليفة ، الذي عين له كاتباً يتولى شؤون اقطاعاته التي لم يبق له سواها .[٣١]

---

٢٨ ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٠ .

٢٩ ـ مسكويه ، تجارب الامم ، جـ ٢ ، ص ٨٦ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٢٤٢ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٢٥ .

٣٠ ـ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٤٩ ـ القلقشندي ، مآثر الأنافة ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ .

٣١ ـ ابن العبري ، تاريخ ، ص ٢٩١ .

حيث أن البويهيين قد استكثروا ان يكون لخليفة المسلمين مرتب يسد به حاجاته ، لذلك امر معز الدولة سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧ م بقطع راتب الخليفة ، وتعويضه باقطاع من أراضي البصرة.[٣٢]

وقد عبر الخليفة العباسي المطيع لله عن حالته المتردية ، وعن حجم الاساءة الى مؤسسة الخلافة بقوله : « ... اما الآن ليس لي منها الا القوت القاصر عن [illegible] في أيديكم (اي البويهيين) وايدي أصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه ... فان أحببتم اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضاً وتركتكم والامر كله ».[٣٣]

. وبلغ من اذلال الغزاة لهذا الخليفة ، ان الحاكم البويهي بختيار عز الدولة بن احمد بن بويه أجبر الخليفة على بيع ثيابه وانقاض داره وقبض ثمنها.[٣٤]

ونتيجة لهذا التعامل المشين مع الخليفة خلع نفسه وعهد بالامر الى ابنه الطائع لله في ١٣ ذي القعدة من عام ٣٦٣هـ/٩٧٣ م[٣٥] وأول هدم تعرضت له الشخصية العربية خلال حكم الخليفة الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ) ، هو أقدام فناخسرو عضد الدولة بن ركن الدولة ابي علي الحسن بن بوية[٣٦] في جمادى الاول سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤ م على اسقاط اسم الخليفة الطائع لله من الخطبة على منابر بغداد ودام هذا الامر خمسين يوماً لم يخطب فيها لأحد من خلفاء بني العباس.[٣٧] وهذا يعني من الناحية الرسمية الغاء الخلافة العباسية وازالة سيادتها في الدولة خلال مدة نفاذ القرار. وربما أراد المتسلط البويهي من هذا القرار جس النبض ومعرفة رد فعل العالم الاسلامي في إلغاء الخلافة العباسية ، الامر الذي كان الغزاة يهدفون اليه.[٣٨] ولكن اضطراب الاوضاع على عضد الدولة البويهي في العراق وانسحابه الى شيراز مرغماً ، وعودة عز الدولة بختيار الى الحكم ، أعاد الخليفة الطائع لله الى موقعه الرسمي ، الا ان الامور اضطربت مرة اخرى بين الخليفة الطائع لله والحاكم

٣٢- ابن الجوزي ، المنتظم : ج٦ ، ص ٣٥٧.
٣٣- مسكوية ، تجارب الامم ، ج٢ ، ص ٣٠٧.
٣٤- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٦٦.
٣٥- مسكوية ، تجارب الامم ، ج٢ ، ص ٣٢٨.
٣٦- ابن خلكان : وفيات ٤/٥٠.
٣٧- اليافعي : مرآة الجنان ٢/٣٨٠.
٣٨- طالب جاسم حسن : المقاومة العربية ص ١١٠.
Siddiqi, caliphate and kingship in medieval persia P. 112.

البويهي بهاء الدولة (احمد بن فناخسرو) ـ الذي وصف بالظلم وسفك الدماء ـ في عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، حيث أهين هذا الخليفة وقتل بنفس الاسلوب الذي قتل به الخليفة المستكفي بالله .(٣٩) بل زادوا عليه هذه المرة حيث مثلوا بالخليفة حياً فقطعوا أذنية وجدعوا أنفه .(٤٠) وكان لهذا الاسلوب الوحشي الفارسي أثرسيء على نفس الشعب العربي الذي أهينت كرامته من خلال اذلال الخليفة العباسي(٤١)

وبجانب تجاوزات الغزاة على شخص الخليفة العباسي كما ذكرنا ، تمادوا ايضاً في مشاركته بشاراته المختلفة ، تلك الشارات التي تعبر عن سيادة الخليفة السياسية والدينية . فشاركوا الخليفة في الخطبة ، حيث أصبح اسم الحكام البويهيين يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة .(٤٢) وكان عضد الدولة أول حاكم بويهي حصل على هذا الامتياز سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، وجعلها سنة في اعقابه .(٤٣)

اما السكة فهي الرمز الثاني لسيادة الخليفة ، فقد انتقل التصرف بها الى يد البويهيين ، فحذفوا لقب أمير المؤمنين واكتفوا بذكر اسم الخليفة على النقود ، في حين ان الحاكم البويهي ذكر اسمه ولقبه وكنيته ، وأضيف احياناً اسم رئيس الاسرة البويهية والقابه ، بل وحتى القاب ولي العهد البويهي بعض الاحيان .(٤٤) وكان اهتمام البويهيين بالسكة متأتياً من شعورهم باهمية وجود اسمائهم والقابهم وكناهم على النقود ، لما في ذلك من دلالات السيادة ، وتأكيد الوجود الشرعي المزعوم لمركزهم .(٤٥)

ومن علامات سيادة الخليفة قرع الطبول على باب داره خمس مرات في اليوم ، ولا يوقف ذلك الا أيام العزاء في دار الخلافة .(٤٦)

---

٣٩ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ص ١٥٧ .

٤٠ ـ ابن الازرق الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٦٣ .

٤١ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١١٢ .

٤٢ ـ عبد العزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، ص ٢٥٢ ـ Arnold; The Caliphate, P: 61.

٤٣ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٩٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٢٩٢ ـ الدوري ، دراسات ، ص ٢٥٢ .

٤٤ ـ الدوري دراسات ، ص ٢٥٣ ـ محمد حسين الزبيدي ، العراق في العصر البويهي ص ٢٨ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٤٨٨ .

٤٥ ـ حمدان الكبيسي ، اسواق بغداد ، ص ٢٢٩ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١١٥

٤٦ ـ محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٥٧ ـ أدم متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .

وكان الخلفاء يحرصون على الانفراد بهذه الميزة . لما لها من دلالة على السيادة . ولما إحتل معز الدولة احمد بن بوية بغداد ، تطلعت نفسه لقصر على بابه ، وسأل الخليفة المطيع لله في ذلك . فرفض الخليفة هذا الامر . ولكنه عندما بنى بيته في الشماسية ، طلب من الخليفة مرة اخرى هذا الامر بحجة وقوع هذا البيت في طرف بغداد فاذن له بشرط ان لايتجاوز بالضرب البابر البارز الى الصحراء .(٤٧)

ولكن عضد الدولة البويهي ، أجبر الخليفة الطائع لله في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م على ان يمنحه امتياز قرع الطبول على بابه ببغداد ثلاث مرات يومياً .(٤٨) ومهد بذلك الطريق لاعقابه وصارت سنة لهم . وقد تجاوز بعضهم حدوده في ذلك فقرعوا الطبول على أبوابهم خمس مرات يومياً ، وقد فعل ذلك سلطان الدولة في عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وجلال الدولة عام ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، وأبو كاليجار عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م .(٤٩)

ومع ان البويهيين سلبوا من الناحية الرسمية جميع شارات الخلافة وتمتعوا بها . الا ان ذلك لم يشبع طمعهم ، بل فكروا في الحصول على الخلافة نفسها ، وكانت لهم محاولات على هذا الطريق منها :

١ ـ **انتزاع التفويض بصلاحيات الخليفة** : حرص البويهيون في عهد احتلالهم للعراق . على ان يكونوا أصحاب القرار الاول في الدولة ، وحققوا ذلك عملياً . الا انهم كانوا تواقين لانتزاع التفويض بذلك رسمياً وبقرار من الخليفة .(٥٠) وقد نجح عضد الدولة باصدار قرار التفويض عن الخليفة الطائع لله الذي أصدر أمراً جاء فيه : « قد رأيت ان أفوض اليك ماوكله الله تبارك وتعالى اليّ من امور الرعية في شرق الارض ومغربها . وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي وما تحويه

---

٤٧ ـ الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٤٨ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٣٢ ـ الذهبي ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ ـ الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ١٣٧ .

٤٩ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٣١ ، ص ١١٩ ـ الذهبي ، دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ٨٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٠٥ .

٥٠ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١١٧ .

٥١ ـ الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٨٣ .

داري » .[٥١] كما أجبر عضد الدولة البويهي الخليفة الطائع لله على اعطائه اللواء المذهب الخاص بولاية العهد ، وهو لواء لا يعطى إلا لولي العهد فقط .[٥٢]

٢ ـ **الهيمنة على الخلافة عن طريق الزواج :** دأب البويهيون في تزويج بناتهم لبعض الخلفاء العباسيين ، أملاً في الحصول على مولود ذكر كي يجعلونه ولياً للعهد وتؤول الخلافة له . وبذلك تكون الخلافة في ولد لهم من نسب عباسي .[٥٣]

ففي عام ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م زوج عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابنته (شاه باز) من الخليفة الطائع لله .[٥٤] وفي عام ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م زوج عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة ابنته الكبرى من الخليفة الطائع لله .[٥٥] وفي عام ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م عقد بهاء الدولة بن عضد الدولة لابنته سكينة على الخليفة القادر بالله ، ولكنها ماتت قبل الزواج .[٥٦] الا ان البويهيين فشلوا في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من محاولاتهم المتكررة .

ب ـ محاولات إذلال الشعب وتفتيت وحدته :

أنشأ البويهيون إمارة وراثية في قلب الدولة العربية ، عبرت عن رغبة مزمنة ، وتطلع مريض طالما أرهق صبر الحقد الفارسي على الامة العربية الاسلامية .[٥٧] ولما سيطر البويهيون على العراق عام ٣٣٤ هـ بدأ عدوانهم على الشعب . فبعد سيطرتهم على بغداد وبقية المدن العراقية عاثوا فيها فساداً ، وأحلوا المحرمات ، وهاجموا الناس في مساكنهم واخرجوهم منها ، واحتلوها عنوة واقاموا بها متحدين ارادة مالكيها ، فلحق الناس ضرراً كبيراً ، وبذلك كانوا أول من تحدى الناس بمساكنهم في بغداد وأزاحوهم عنها ، ولم يكن ذلك معروفاً قبل الغزو البويهي .[٥٨]

---

٥١ ـ الصابي ، رسوم ص٨٣ .

٥٢ ـ الصابي ، ايضاً ، ص ٩٤ .

٥٣ ـ ابن العبري ، تاريخ ، ص ٢٩٩ .

٥٤ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٢٨٠ .

٥٥ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٧١٠ .

٥٦ ـ الذهبي ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٢٢ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٦٤ .

٥٧ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١١٨ .

٥٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٤٩ ـ ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٢٧٨ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ .

كما عمل البويهيون منذ بداية دخولهم العراق على شق صفوف الشعب العربي وتمزيق وحدة العالم الاسلامي ، وأدركوا خطورة سلاح التفرقة ، وقد عملوا بهذا السلاح وأحسنوا استغلاله ، وذلك عن طريق :

١ ـ تغذية محاولات تشويه العقيدة الاسلامية ، من خلال ابراز الافكار ذات الجذور المجوسية ، وزرع التناقض في معتقدات المسلمين .

٢ ـ العمل على هدم التماسك الروحي بين عموم الشعب ، من خلال بناء الكتل والمحاور المتصارعة في المجتمع العربي .

٣ ـ ايهام احدى الكتل المتصارعة بالانحياز لها ، والعمل على كسب ودها لاغراض تثبيت الغزو وتحقيق اهدافه العنصرية[٥٩] وبذلك كانت لسياسة البويهيين في العراق اثر سيء ، أدت الى قيام الفتن الطائفية .[٦٠] فشقت صفوف الشعب الواحد ، وهدفت الى تمزيق وحدة الصف العربي وبالذات البيت الهاشمي (البيت العباسي والبيت العلوي) .[٦١]

ومن ممارسات التسلط البويهي في هذا المجال ، أمر معز الدولة أحمد بن بوية في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م بكتابة اللعن الصريح لاصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على جدران المساجد ، وعندما مسح المسلمون هذه الكتابات ليلاً ، أمر باعادة كتابتها مرة أخرى .[٦٢] وكان يهدف من ذلك شق صفوف الشعب وزرع الفتنة من أجل إضعافه وانهياره .

وفي عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م أمرمعز الدولة بغلق الاسواق في ايام معينة ، ومنع بعض أصحاب الحرف من مزاولة أعمالهم[٦٣] ويهدف الغزاة من هذا الى انضاج التكتلات والمحاور في الدولة العربية ، واشغالها بالخلافات الفرعية التي تزيد من تفتيت وحدة الشعب .[٦٤]

---

٥٩ ـ طالب ياسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٤٣ .

٦٠ ـ عبد النعيم محمد حسنيين ، دولة السلاجقة ، ص ١٥ .

٦١ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢١ ـ العصمان ، المهدي والمهدوية ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

٦٢ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٧ ـ ٨ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠٠ .

٦٣ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٤٩ ـ الذهبي ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠١ .

٦٤ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٤٦ .

وفي ظل هذه السياسة العنصرية ، عم الخراب مدينة بغداد .[٦٥] وانهار الصرح الاقتصادي المزدهر للعراق . فغلت الاسعار وتفشت المجاعات واندثرت فروع الانهار وانكسرت السدود . وارهق الشعب بالضرائب الفادحة .[٦٦] وبذلك شاع الفقر وتفككت الاخلاق وفشت الجرائم وتمزقت أوصال الامة في وحدتها الروحية .[٦٧]

التصدي للسيطرة البويهية

عبر البويهيون ، من خلال تسلطهم على العراق والجزيرة الفراتية عن حقدهم الفارسي بمظاهر مختلفة تمثلت في اذلال شخصية الخليفة العباسي ، وتفتيت وحدة الشعب ، وقد تصدى لهذه السيطرة مؤسسة الخلافة والشعب بالرغم من كل محاولات البويهيين لاذلالهم ، كما قامت ثورات عربية قاومت التسلط البويهي .

١ ـ موقف الخلافة والشعب من التسلط البويهي :

أ ـ موقف الخلافة :

منذ أن بدأت طلائع الغزو البويهي تطل على حدود العراق ابتداءً من عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م الى دخولهم بغداد عام ٣٣٤ هـ ، كان الخليفة العباسي يتصدى لهذا الغزو كما ذكرنا في المرحلة الرابعة .

واذا كان الخليفة العباسي المستكفي بالله مضطراً لاستقباله احمد بن بويه عند إحتلاله بغداد عام ٣٣٤ هـ ، فانهُ ظلّ يعمل على مقاومة التسلط البويهي ، حتى أن أحمد بن بويه إتهمه بمساعدة الحمدانيين ومراسلتهم[١] ، فضلاً عن انَّ بعض الروايات تشير الى أن قهرمانة المستكفي بالله (علم) دبرت اجتماعاً موسعاً دعت اليه كبار قادة الديلم والاتراك للايقاع بمعز الدولة البويهي واصحابه .[٢] وكان ذلك سبباً مباشراً لخلع هذا الخليفة ومقتله كما ذكرنا .

---

٦٥ ـ ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص ٣٣ .

٦٦ ـ ينظر ، طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ١٢٤ وبعدها .

٦٧ ـ محمد بديع شريف ، الصراع بين الموالي والعرب ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

١ ـ ينظر ، المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٧١ .

٢ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٥٠ ـ عمر رضا كحالة ، اعلام النساء ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

وبالرغم من أن الخليفة المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) جاء الى كرسي الخلافة بايدي البويهيين ، الا ان له وقفات مضادة للتسلط البويهي تتمثل في اعتراضه على قرار معز الدولة البويهي بتولية ابي العباس عبدالله بن الحسن بن ابي الشوارب منصب قاضي القضاة كما ذكرنا ، كما رفض الخليفة المطيع لله طلباً لعز الدولة بختيار في عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م عندما أراد من الخليفة أن يجهز الحسن بن أحمد القرملي بالمال والرجال ويوليه بلاد الشام ومصر لاخراج المعز العبيدي منها .(٣)

وعندما تأزمت العلاقة بين عز الدولة بختيار وسبكتكين الحاجب في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، أراد الحاجب ان يستثمر تذمر الخليفة المطيع لله من التسلط البويهي ، فعرض عليه المقاومة المسلحة لاسقاط عز الدولة وانهاء الغزو البويهي . ولكن الخليفة لم يستجب لهذا الامر تحسباً لعواقب الامور ، غير ان الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) الذي أعقب أباه في الحكم ، استجاب لفكرة الحاجب ، وعقد له اللواء وخلع عليه السلطنة ولقبه بـ (نصر الدولة) ، وشارك الخليفة شخصياً في التصدي العسكري لمز الدولة البويهي ، إذ خرج مع قوات سبكتكين الحاجب (نصر الدولة) وشارك في تحدي التسلط البويهي .(٤) . ولما مات هذا الحاجب في دير العاقول قبيل الاشتباك مع البويهيين ، بايع الاتراك (أفتكين) قائداً لهم ، فوافق الخليفة الطائع لله على هذا الامر وعرضى عليه اللقب .(٥) .

وإزداد موقف الخليفة العباسي الطائع لله صلابة في تحدي التسلط البويهي عندما وصلت قوات عضد الدولة لمساعدة عز الدولة التي حاصرت بغداد ، فدعا الخليفة الاشراف والقضاة والاتراك على مواصلة الصمود والتصدي لهذه القوات البويهية . وواصل الخليفة الطائع لله موقفه هذا حتى بعد دخول الجيش البويهي بغداد ، وتصدى لعضد الدولة عندما طمع في العراق وزور كتاباً عن الخليفة بتوليته العراق .(٦) وقد ادى هذا الموقف الى قطع الخطبة للخليفة في بغداد مدة خمسين يوماً كما ذكرنا .

---

٣ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ٧٤ .

٤ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠٦ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٢٧٩ .

٥ ـ مسكويه ، تجارب الامم ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ ـ ابن خلدون ، العبر جـ ٤ ، ص ٤٤٩ .

٦ ـ الذهبي ، دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .

من الاسباب المباشرة لخلع الخليفة القادر بالله هو اعتقاله لأبي الحسن بن المعلم ، وكان من ابرز أركان السلطة البويهية . واقرب خواص بهاء الدولة البويهي .(٧)

وكان للخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) أثر كبير في تعجيم السلطة البويهية واضعاف وجودها من خلال مواقفه الحاسمة ضد التسلط البويهي . وتميز عصره بقوة الخلافة العباسية من جهة ، وضعف واضمحلال السلطة البويهية من جهة اخرى.(٨) ويبدو أن أخطر سلاح إستخدمه القادر بالله لاضعاف السيطرة البويهية ، نجاحه في إعادة ثقة الشعب بالخلافة العباسية . حيث إهتم هذا الخليفة بتقصي أخبار الشعب في المجالس العامة والمجالس الدينية متنكراً من اجل الاطلاع على حقيقة الامور بكل تفاصيلها ، وكان يجلس للنظر في مظالم الشعب يومين في كل اسبوع .(٩)

ونشط القادر بالله لحماية مؤسسة الخلافة وصلاحياتها الخاصة من التدخل البويهي ، ومن ذلك قراراته الجريئة في تعيين ولي العهد دون علم وتدخل السلطة البويهية .(١٠) وكذلك رفضه المصادقة على قرار أصدره بهاء الدولة من شيراز بتولية أبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي النظر في قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبيين .(١١)

ولما دخل جلال الدولة البويهي بغداد ، عام ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م أمر بقرع الطبول على بابه خمس مرات ، فاعترض الخليفة القادر بالله على هذا الامر ومنعه واعتبره من باب التجاوز على شارات الخليفة الخاصة .(١٢) كما وقف الخليفة القادر بالله الى جانب الجيش الذي تردد بقبول امارة جلال الدولة التي تولاها عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، فأصدر أمراً بالغاء امارة جلال الدولة ، واقامة العطية لأبي كاليجار بن سلطان الدولة .(١٣) ويبدو أن الخليفة قد هدف الى استقطاب الجيش الى صفه من

---

٧ ـ ابن مسكويه ، التجارب ، جـ ٥ ، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٤ .

٨ ـ ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٢٩٢ .

٩ ـ ابن الأزرق ، تاريخ الفارقي ، ص ١٢٦ ـ ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ص ١٩٩ .

١٠ ـ ينظر ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٤٧ وما بعدها .

١١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٨٧ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٥ .

١٢ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٣٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٧٥ .

١٣ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٧٤ .

جهة ، وتصعيد التناحر بين افراد الاسرة البويهية من جهة اخرى . (١٤) وبذل الخليفة القادر بالله جهوده في توحيد كلمة المسلمين . وتضييق دوائر النفاذ الثقافي الذي كان للبويهيين اليد الطولى في انشائه . ففي عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٦ م منع الخليفة نشاطات الكتل والمحاور المذهبية . وأمر بنبذ الناظرة في هذا الاتجاه . وعدد من يخالف هذه الاوامر . كما عقد في عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م اجتماعاً موسعاً بدار الخلافة دعا له القضاة والشهود والفقهاء والوعاظ والزهاد ، وقرأ عليهم كتاباً ينطوي على توجيهات اسلامية موحدة ، ثم الزم الجميع بمحتوى ذلك الكتاب . (١٥) وبذلك كان للخليفة القادر بالله أثر بالغ في اضعاف السلطة البويهية . فقد اعطى للخلافة العباسية عمراً جديداً واخضع الديالمة وعمل على تمييع وجودهم . (١٦)

ولما تولى الخليفة القائم بامر الله الخلافة (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) سار على نهج ابيه في الاستقامة والعدل والاهتمام بالرعية ، وعهد الى العلماء والمحدثين مهمة معرفة أحوال الناس ، ووجوب اطلاعه على كل التفاصيل . (١٧) كما بادر الى وضع حد لتجاوزات الحكام البويهيين وبالذات جلال الدولة ، الذي تعرضت بغداد في عهده الى فتن طائفية واحرقت بعض اسواقها . (١٨) ففي عام ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م أقدم جلال الدولة البويهي على تصرف شائن في دار الخلافة . فاعلن الخليفة اعتراضه على هذا السلوك ، وهدد بترك البلد . وصرح بانه سيدبر أمره بما يجب . وهذا يعني ان الخليفة فكر باستخدام القوة للتصدي للسلطة البويهية ، فضلاً عن ان تهديده بمغادرة البلد يعني تجريد البويهيين من الشرعية المتطلين بها . والظاهر ان جلال الدولة أدرك خطورة الامر ، فسار الى دار الخلافة واعلن الطاعة للخليفة واسترضاه . (١٩)

وفي عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٢ م تجاوز بعض الجند البويهيين على ممتلكات الخلافة ونهبوا بعض المواد . فاحتج الخليفة القائم بامر الله وحرك رجال الدين ضد هذا

---

١٤ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة الشعبية ، ص ٢٨٣ .

١٥ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢٨٧ ـ جـ ٨ ، ص ٤١ .

١٦ ـ نظمي زادة مرتضى ، كاشف خلفا ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

١٧ ـ ابن دحية ، كتاب التنوير ، ص ١٣٦ .

١٨ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٨١ .

١٩ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

التجاوز، حيث أغلق باب المسجد الجامع، وامر القضاة بالامتناع عن الحكم، ولفقهاء بترك الفتاوى. ولم يبدل الخليفة موقفه حتى أحضر جلال الدولة الجند المتجاوزين الى ديوان الخلافة صاغرين. فعفى عنهم الخليفة بعد ذلك.(٣٠) ومن المؤكد ان موقف الخليفة هذا لم يأت من رغبته في اعادة المواد المتجاوز عليها لذاتها، بل لتأديب جند الاحتلال وتأكيد سيادة مؤسسة الخلافة.

وكرر الخليفة القائم بامر الله تهديده لسلطة الاحتلال البويهي باغلاق دار الخلافة واللجوء الى اسلوب جديد لحفظ هيبة الخلافة واحترامها في سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م وكان ذلك لردع محاولة اجهزة السلطة البويهية في القبض على قاضي القضاة أبي عبدالله بن ماكولا.(٣١)

وتأزمت العلاقة بين الخليفة القائم بامر الله وجلال الدولة البويهي، ففي عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م رفض الخليفة منح لقب ملك الملوك لجلال الدولة.(٣٢) كما اعترض على تدخله في جباية أموال الجوالي، التي تعد حقاً خاصاً لمؤسسة الخلافة، وهدد الخليفة الحاكم البويهي الذي أذعن لارادة الخليفة، وتعهد بعدم التدخل باموال الجوالي، فاعيدت هذه الاموال الى مؤسسة الخلافة في عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م.(٣٣)

وقويت مؤسسة الخلافة وفرضت هيبتها على السلطة البويهية وتزايد نفوذها بتدابير الخليفة القائم بامر الله، الذي امتنع في عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م عن استقبال الحاكم أبي كاليجار البويهي عندما دخل بغداد.(٣٤) كما أمر هذا الخليفة في عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م، الملك الرحيم البويهي بابعاد أبي الحارث أرسلان البساسيري، وهو من أبرز مقدمي الاتراك في الامارة البويهية، الذي أثار الشغب في بغداد، فامتثل الحاكم البويهي لاوامر الخليفة.(٣٥) وهكذا اكدت مؤسسة الخلافة صلابة موقفها تجاه رموز الاحتلال البويهي المنهار.

---

٣٠ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٤٠.

٣١ ـ ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ٨٩، ص ٨٢.

٣٢ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٥٩.

٣٣ ـ ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ١١٩ ـ ابو الفدا، المختصر، جـ ٤، ص ٦٨ ـ القلقشندي، مآثر الانافة، جـ ١، ص ٣٢٦ ـ لوزي، البلاغة، ص ٤٩٠.

٣٤ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٢ ـ ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٤٨٥.

٣٥ ـ ابن الوردي، تاريخ، جـ ١، ص ٤٩٢ ـ ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٤٩٢.

الفصل الرابع

عصر السيطرة السلجوقية

القسم الاول * *

عصر السلاطين الأقوياء (الكبار)

٤٤٧ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ ـ ١٠٩٢ م

موطن السلاجقة وأصلهم :

المرحلة الاولى :

كانت سهول التركستان الموطن الاول للسلاجقة ، ونظراً لاحترافهم الرعي فكانوا يتنقلون من مكان الى آخر ، فيصيفون في بلاد البلغار ، ويشتون في سهول التركستان .[١] وهم مجموعة من قبائل الاتراك المعروفة باسم الاوغوز (الغز)[٢] وجدهم الاعلى تقاق (دقاق)[٣] كان مقدم الاتراك الغز .[٤] وتولى ابنه سلجوق ـ تسمية السلاجقة تعود اليه ـ هذه المكانة واسند له ملك الترك منصب قائد الجيش .[٥] الا ان شخصية سلجوق التي تكشفت عن مهارات قيادية راجحة ، أثارت مخاوف الملك ، وقد حرضته زوجته على قتل سلجوق قبل أن يستفحل

١ ـ المقريزي ، كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٠ ـ ابن خلدون ، ٥ / ٢ .

٢ ـ الاوغوز خففت هذه التسمية فصارت (الغز)

٣ ـ دقاق تعني القوس من الحديد ـ ابن الاثير ، ٨ / ٤٧٢

٤ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٧٢ ـ الصبادي ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

٥ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية للنفوذ السلجوقي ، ص ٢٦ .

* كتبه الدكتور خليل ابراهيم السامرائي

المنطقة بعد عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م واستقرت قرب موارد المياه ، وانسحبت من جنوب الاراضي لرعي حيواناتهم .(١٤) ودخل السلاجقة في هذه الفترة في حروب مع الحكام المحليين في هذه المنطقة ، والذين توجسوا خوفاً من تزايد قوة السلاجقة .(١٥)

مات سلجوق عن مائة وسبعة أعوام .(١٦) وكان له اربعة اولاد هم : اسرائيل (بيغو أرسلان) وميكائيل وموسى ويونس ، وقاد اسرائيل قومه بعد وفاة والده سلجوق ، وكانت الدولة السامانية قد انهارت في عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، وكانت أراضي السلاجقة قد ضاقت بهم ، فأخذوا يتنقلون مابين نور بخارى في الشتاء وسمرقند في الصيف .(١٧) وفي الوقت نفسه برزت قوة الايلكخانيين ، ولاسيما بعد ان ملك (ايلك خان) بخارى ، وتعاون معه السلاجقة . ولكن السلاجقة سرعان مانقلبوا على (ايلك خان) بالاتفاق مع احد امرائه (علي تكين) والحقوا به الهزيمة ، وبذلك اصبح للسلاجقة دور كبير في تقرير الأوضاع في بلاد ماوراء النهر ، لاسيما بعد ان اعترف (ايلك خان) بنفوذ اسرائيل (بيغو ارسلان) في منطقة بخارى .(١٨)

المرحلة الثانية : الصراع بين السلاجقة والغزنويين : يبدو ان تحالف السلاجقة مع علي تكين قد جرهم الى معاداة الدولة الغزنوية بسبب تحرشات علي تكين وعدائه لمحمود الغزنوي ، مما دفع الاخير الى شن غارة على السلاجقة ، اضطرهم الى الهرب امامه .(١٩) وفي الوقت نفسه بدأ السلطان محمود الغزنوي يحتاط لأمر السلاجقة ويتحسب لهم ، بعد ان حذره ايلك خان من خطرهم .(٢٠) وذلك في عام ٤١٥ هـ /

---

١٤ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٨٠ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص١٨ .

١٥ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٢٩ .

١٦ ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٣١ .

١٧ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٤٥ ـ حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٥٦ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥١ ـ احمد كمال الدين حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ٢٢ .

١٨ ـ ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ، ص ٤٧٤ .

١٩ ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ١ قسم ١ ، ص ٣٢ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥١٦ .

٢٠ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٤٨ .

أمره.(٦) فلما احس سلجوق بنية الملك هاجر بجماعته، وسار صوب بلاد المسلمين غرباً، واقام بنواحي بخارى واعتنق الاسلام، واخذ يشن الغارات على القبائل التركية الوثنية الاخرى حتى أسقط ضريبة الخراج التي كان يأخذها [illegible] من المسلمين في المناطق المجاورة.(٧)

بدأت هذه الهجرة في حدود عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م، وذلك بعد ان كون سلجوق قبيلته كياناً، فعلا شأنها بفضل سعيه ونشاطه.(٨) مما أثار مخاوف ملك الترك، فضلاً عن ازدياد عدد قبائل الترك في سهول التركستان، فضاقت موارد الرزق بهم، فيسر سلجوق وقومه وجههم شطر اقليم بلاد ماوراء النهر.(٩) فسكنت قبائل السلاجقة الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم (بحر أرال)، بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (بحر الخزر) وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون. وكانت هذه المساكن تقع بين بلاد ماوراء النهر، ومنازل طائفة من الاتراك المسلمين تسمى القرلق.(١٠)

وكانت منازل السلاجقة، في ذلك الوقت ـ تجاور أراضي السامانيين والخانيين والغزنويين، وهم من الدول الاسلامية، فأدى جوار السلاجقة لهم الى اعتناق الاسلام الذي يسر لهم فرصة التقرب من حكام المسلمين المجاورين لهم، والتدخل ـ احياناً ـ في المنازعات التي تقوم فيما بينهم.(١١).

واستفاد سلجوق من مساعدته للسامانيين في صراعهم مع هارون بن ايلك خان.(١٢) فأذنوا له بالمرور عبر بلادهم والاستقرار عند شواطيء نهر سيحون. فاتخذ مدينة جند قاعدة له ولقومه.(١٣) ثم أخذت جموع السلاجقة تزداد وتنتشر في هذه

---

٦ ـ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٢ ـ قطبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، جـ ٢، ص ٥٢٢.

٧ ـ البنداري، السلوك، جـ ١، ص ٢٠ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٧٨ ـ ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص ٢٩٢.

٨ ـ حسين امين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٤٥.

٩ ـ عبد الكريم محمد حسين، سلاجقة ايران والعراق، ص ١٦.

١٠ ـ التاريخ الاسلامي في العصر العباسي، ص ٤٤٩.

١١ ـ عبد النعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ١٧.

١٢ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٧٤.

١٣ ـ البنداري، تاريخ الدولة السلجوقية، ص ٢ ـ حسين امين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٤٥ ـ التاريخ الاسلامي في العصر العباسي، ص ٤٥٠.

١٠٢٤ م . وعلم محمود الغزنوي بان السلاجقة قوة كبيرة يقودها اسرائيل بن سلجوق ، فلجأ الى الحيلة والدهاء لاتقاء خطرهم . فارسل الى قائدهم يعرض عليه رغبته في كسب ود السلاجقة وعقد ميثاق معهم لتكريس الصداقة والود بين الطرفين ،(٢١) وضرب له موعداً للقاء قرب نهر جيحون ، وكان محمود الغزنوي قد دبر أمراً بالقبض على اسرائيل زعيم السلاجقة ومن يأتي معه من الزعماء والقواد . فلما سار اسرائيل وبعض رجاله للقاء السلطان محمود الغزنوي نضجت المؤامرة ، فقبض محمود الغزنوي على زعيم السلاجقة ورجاله وحملهم الى الهند وسجنهم في قلعة كالنجر ، وحاول السلاجقة انقاذ زعيمهم ، الا انهم فشلوا ، ومات اسرائيل في سجنه عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م .(٢٢)

تزعم السلاجقة ، بعد هذا الحادث ، ميكائيل بن سلجوق ، ففكر في الانتقال الى اقليم خراسان ، ورسم خطة محكمة تهدف : الى تثبيت اقدام السلاجقة في هذا الاقليم اولاً ، ثم تسعى الى الانقضاض على الدولة الغزنوية والأخذ بالثأر منها ثانياً ، وترمي الى تكوين دولة قوية تخلف الغزنويين في اقليمي خراسان وبلاد ماوراء النهر ، وما تستطيع السيطرة عليه من اجزاء اخرى في بلاد ايران ثالثاً .(٢٣)

وبدأ ميكائيل في تنفيذ الشطر الاول من الخطة المرسومة ، فرأى ان الدخول في حروب مع السلطان محمود الغزنوي أمر قد يسحق البقية الباقية من قوة السلاجقة ، نظراً لقوة محمود الغزنوي ومكانته في العالم الاسلامي ، واجلال الخلفاء العباسيين له . فآثر استعمال الحيلة ،(٢٤) فأرسل الى السلطان محمود الغزنوي يلتمس منه الاذن للسلاجقة بالمرور من الاراضي التي تقع تحت سلطانه ، والرحيل الى اقليم خراسان ، والاقامة في المنطقة الواقعة بين مدينتي (نسا) و (باورد) وعلم والي طوس (ارسلان الجاذب) بنية السلاجقة ، فارسل الى السلطان محمود الغزنوي يحذره من السماح لهم بالوصول الى خراسان ، لان وجودهم في هذا الاقليم خطر

---

٢١ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٢ .

٢٢ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٤٨ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٢ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ٢٦ ـ احمد كمال الدين حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٢ .

٢٣ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٤ .

٢٤ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٥٢ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٤ .

بهلد دولته ، [٢٥] غير ان السلطان الغزنوي لم يعبأ بهذا التحذير ، اعتقاداً منه بان قوة السلاجقة قد ضعفت بعد اغتيال اسرائيل ورجاله . فسمح لهم بالرحيل الى خراسان ، فعبروا نهر جيحون واستقروا في هذا الاقليم ، وذلك في حدود عام ٤١٦ هـ/١٠٢٥ م.[٢٦]

تركز السلاجقة في اقليمهم الجديد ، ودعموا قوتهم بوحدوا صفوفهم ، وأحسن أهل (باورد) و (نسا) بخطرهم ، فرفعوا شكواهم الى السلطان محمود الغزنوي في اواخر عام ٤١٨ هـ/١٠٢٧ م وطلبوا منه ابعاد السلاجقة من جوارهم ، فامر السلطان محمود والي مدينة طوس باجلائهم ، فهاجم معسكراتهم غير ان السلاجقة هبوا لمقاومته ، فدارت بين الطرفين معارك عنيفة انتصر فيها السلاجقة انتصاراً كبيراً ، ولكن حضور السلطان الغزنوي جول نصرهم الى هزيمة ساحقة .[٢٧]

توفي ميكائيل بن سلجوق (قبل عام ٤٢١ هـ) وترك ولدان : ابو سليمان داود (جغري بك) وابو طالب محمد (طغرل بك) وكانا بتعتان بنفوذ كبير بين جند السلاجقة ، فانتهزا فرصة وفاة السلطان محمود الغزنوي في عام ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م ،[٢٨] فحاولا الأخذ بالثأر ، وتوسيع رقعة الاراضي التي يسيطر عليها السلاجقة ، واخذا ينشران نفوذهما على الجهات المجاورة حتى شمل نفوذهما كثيراً من انحاء خراسان . وطلبا من والي نيسابور (سوري بن المعتز)[٢٩] ان يأذن لقومها بالاقامة بالقرب منها ، فرفض الوالي واستعان بالسلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، فاسرع الى نيسابور في عام ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م لدفع هذا الخطر السلجوقي ، فانهزم السلاجقة في البداية بالقرب من نسا ، ولكنهم انتصروا في النهاية ، فاضطر مسعود الى عقد صلح معهم ، وترك بمقتضاه المنطقة لهم ، ثم رحل الى الهند . وكان

---

٢٥ – الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٥٣ – ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٧٦ – الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٢–٣ .

٢٦ – الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٩٤–٩٥ – عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٥ – حسن امين ، تاريخ العراق ، ص ٤٨–٤٩ .

٢٧ – عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٦ .

٢٨ – ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٨ – العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٤٧٨ ، ص ٥٥٥ .

٢٩ – الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٥٤ .

لهذا الصلح اثر كبير في ازدياد قوة السلاجقة وبخاصة قد اعطيت لهم بموجبه ولايات : نسا ودهستان وفراوة ، ولقب زعماء السلاجقة بلقب الدهقان .[٣٠]

وعاد السلطان مسعود الغزنوي من بلاد الهند الى مدينة غزنة في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، وعلم بارتفاع شأن السلاجقة وقوة أمرهم ، فطلب من أمير خراسان بوجوب محاربتهم وابعادهم عن خراسان .[٣١] وتردد والي خراسان في البداية ، الا أنه حاربهم بعد الحاح السلطان مسعود عليه ، فانهزم امامهم ، وانهزم كذلك الجيش الذي ارسله السلطان مسعود مع كبار قواده عند أبواب مدينة سرخس عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ،[٣٢] وبذلك اصبحت قوة السلاجقة اعظم قوة في خراسان . ودخل طغرل بك مدينة نيسابور فجلس على عرش مسعود الغزنوي ، ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب ،[٣٣] واعلن قيام دولة السلاجقة ، وأمر بضرب النقود باسمه في البلاد التي سيطر عليها .[٣٤]

المرحلة الثالثة : السيطرة على ايران

يعدُّ عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م بدء قيام دولة السلاجقة ، لان طغرل بك باشر أعماله سلطاناً فعلياً للسلاجقة . وبذلك أصبح للسلاجقة كيان سياسي ، ورقعة معينة من الارض ، وحاكم له الزعامة التي منحها أياه رعاياه .[١] وبذلك استكملت الدولة الشكل ولم يبق الا استكمال الصفة الشرعية بالحصول على اعتراف الخليفة العباسي ، وكان اعتراف هذا الخليفة في ذلك الوقت من الامور الشكلية ، لاعطاء

---

٣٠ ـ ينظر ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٧٨ ـ العسيني ، أخبار ، ص ٥ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٤٩ ـ ٥١ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٩ .

٣١ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٥٧ .

٣٢ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١ ـ العسيني ، أخبار ، ص ٨ ـ ٩ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٤٨ .

٣٣ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٥٨ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٥٢ ـ فوزي ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ٧٦

٣٤ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٢٤ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٧ ـ حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

١ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٥٢

الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس ،[٢] ، ولم يلبث الخليفة العباسي حين طلب منه السلاجقة الاعتراف ، ان أصدر لهم هذا التقليد في عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م .[٣]

وفي الوقت نفسه ، بدأ السلاجقة بأعمال استفزازية ، حيث شنوا حملات على مناطق نفوذ الدولة الغزنوية ، وذلك في عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ،[٤] فنتيجة هذه الاعمال الاستفزازية ، ونتيجة ظهور السلطان طغرل الاول (طغرل بك) وقيام دولته ، جن جنون السلطان مسعود الغزنوي ، فقرر أن يخوض معركة انتحارية مع السلاجقة . فسار بنفسه في جيش كبير متجهاً نحو مرو لتأديب السلاجقة ، ولكن جهوده باءت بالفشل في النهاية ، وكان آخر اشتباك بينه وبين السلاجقة عند (دندانقان) ، في الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو ،[٥] وذلك في عام ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ، فانهزم السلطان مسعود هزيمة نكراء ، ورجع الى غزنة مدحوراً ، وغنم السلاجقة من معسكره الشيء الكثير ، ورجع السلطان طغرل الاول الى نيسابور مكللاً بالنصر ،[٦] وبعد ذلك سيطر على هراة وبلخ .[٧]

وقد نتج عن معركة (دندانقان) ترسيخ الكيان السياسي للسلاجقة ، وزال بعدها خطر الغزنويين واضمحلت منافستهم للسلاجقة بعد أن انكسرت شوكتهم في معركة دندانقان ، واخذت اوضاعهم السياسية بالاضمحلال والاضطراب ، في حين ترسخ الوجود السياسي للسلاجقة ، واندفعوا لسد الفراغ الذي تركته الدولة الغزنوية ، بالسيطرة على الكثير من المدن والاقاليم خلال الفترة من عام ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م الى عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .[٨]

---

٢ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٨ .

٣ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٨ .

٤ ـ البيهقي ، تاريخ البيهقي ، ص٦٢١ وبعدها ـ حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص٣٦ .

٥ ـ ينظر ، الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٦٣ .

٦ ـ البيهقي ، تاريخ ، ص ٦٨٨ ـ ٦٨٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ / ٤٨٢ ـ

٧ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٥٨ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ٧٧ ـ فوزي ، مباحث في الحركة الشعوبية ص ٨٨ .

٨ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٧٤ وبعدها ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٢٥ .

سعى السلطان طغرل الاول الى ارساء اركان دولة سلجوقية قوية تتسع العالم الاسلامي كله ، لو استطاعت الى ذلك سبيلا .[٩] ، ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، وحد طغرل الاول الاسرة السلجوقية ، واستعان بافراد الاسرة هذه في تحقيق هذا الهدف الواسع . فعقد اجتماعاً ضم أخاه جغري بك (داود) ، وعمه موسى بيغو ، وابناء عمه وغيرهم من رجالات السلاجقة ، تعاهدوا فيه على الاتحاد ، وعلى الولاء لزعامة محمد (طغرل الاول) ، وعين كل واحد منهم على ولاية من الولايات ، وسيره اليها ، وسمح له بان يفتح مايستطيع فتحه من المناطق المجاورة لها ، ويضم مايفتحه الى منطقة نفوذه دون منازع .[١٠] . فاختص جغري بك (داؤد) باكثر خراسان على ان يتخذ مدينة مرو داراً لملكه ، وتنصيب موسى بيغو الى ولاية هراة وبست وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي التي يستطيع فتحها ، وتنصيب قاورد ـ وهو اكبر أولاد جغري بك ـ على ولاية الطبسين ونواحي كرمان ، واختص ابراهيم ينال وهو أخو السلطان طغرل بك من امه ، بولاية قهستان وجرجان ، وللحسن بن موسى بوشنج وهراة وبلاد الغور وهي ولاية متداخلة في ولاية ابيه موسى بيغو ، أما السلطان طغرل فقد اتخذ مدينة الري داراً لملكه ، وقرر ان يتجه للسيطرة على العراق والولايات القريبة منه .[١١]

وبعد أن رتب السلاجقة امورهم ، وحددوا أهدافهم ، لم يبق امامهم الا أن يعطوا دولتهم الصفة الرسمية ، ويضفوا عليها الصيغة الشرعية ، ويحصلوا على موافقة الخليفة العباسي على قيام هذه الدولة ، واعترافه بسيطرتها على الاقاليم التي تحت نفوذها ، والمناطق التي قد تسيطر عليها في المستقبل .[١٢] فكتبوا في عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م رسالة الى الخليفة العباسي القائم بامر الله ، أظهروا فيها ولاءهم له ، وحبهم للجهاد في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، ثم بينوا له مافعله السلطان محمود الغزنوي بهم وبالذات بعمهم اسرائيل بن سلجوق ، وشرحوا له كذلك حالة المسلمين في عهد السلطان مسعود ، الذي ترك امور الدولة وانصرف الى اللهو والشراب ، مما جعل عظماء خراسان يختارون السلاجقة لحماية المسلمين ورعاية مصالحهم . ثم ذكروا مهاجمة السلطان مسعود لهم ، وما حدث بينهم من حروب ، وطلبوا في نهاية الرسالة

---

٩ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٣٢ .

١٠ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٠ .

١١ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٧٧ ـ حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٥٥ .

١٢ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٣٣ .

ان يعترف الخليفة العباسي بقيام دولتهم ، وبطغرل الاول سلطاناً عليهم ، حتى تكون ولايتهم شرعية قائمة على اساس من الدين ، وامر من امير المؤمنين .(١٣)

ويلاحظ ان الظروف في مقر الخلافة العباسية كانت مهيأة لاستجابة القائم بامر الله لرسالة السلاجقة(١٤) . وبذلك أصبحت الطريق ممهدة لقيام مزيد من الاتصالات بين الخليفة وبينهم حتى سيطرتهم على بغداد عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م(١٥) .

لم يتوقف السلاجقة حتى يصل رد الخلافة العباسية ، وانما أخذوا في تنفيذ خطتهم في السيطرة على ايران كلها ، حيث انصرف كل وال منهم الى المنطقة التي وضعت تحت نفوذه كما ذكرنا ، ليحكمها ، ويفتح المناطق المجاورة لها . وبعد ان اطمان السلطان طغرل بك بوصول كل حاكم الى منطقته ، بدا في تنفيذ ما بقي من خطته لاتمام سيطرة السلاجقة على ايران والعراق ، وكان عليه ان يقضي على البقية الباقية من نفوذ الديالمة في كل من ايران والعراق حتى تتم السيطرة لقومه ، فقام بحروب كثيرة ، متعددة الميادين ، واستعان في جميع أعماله بالب أرسلان ابن أخيه جغري ، فعد تعيينه بمثابة توليته للعهد(١٦) .

وبدأ السلطان طغرل بتنفيذ خطته ، ففي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م سيطر على منطقة طبرستان وجرجان منتزعاً اياها من واليهما انوشيروان الزياري الذي اعلن خضوعه لسلطان السلاجقة ، فكان هذا ايذاناً بسقوط الامارة الزيارية في ايران والتي حكمت من عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م الى عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م(١٧) .

ثم توجه السلطان طغرل في عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م لفتح خوارزم وتمكن من ضمها الى دولة السلاجقة هي وما جاورها ، ثم رحل بعد ذلك الى مدينة الري ، التي كانت قد وصلتها قوات السلاجقة بقيادة ابراهيم ينال ، فأصلح حالها وجعلها مقراً لحكومته(١٨) . وفي مدينة الري استقبل السلطان طغرل مبعوث الخليفة العباسي

---

١٣ ـ ينظر ، الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص٥٦ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

١٤ ـ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص ٧٧ .

١٥ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٣٨ .

١٦ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٠٥ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ص ٢٤ .

١٧ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٢ .

١٨ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٥ .

الذي حمل الرد على رسالة السلاجقة[١٩]، وقد بقي هذا المبعوث فترة طويلة في مدينة الري حتى تم له اللقاء مع السلطان السلجوقي لانشغاله بالحروب[٢٠]، حيث دعا المبعوث العباسي، السلطان طغرل لزيارة بغداد، غير انه أرجا زيارته الى ان ينتهي من فتح الاقاليم الغربية والجنوبية من ايران، وانه يزور بغداد في الوقت المناسب[٢١].

والظاهر ان الخليفة العباسي اراد أن يوظف قوة السلاجقة لاعادة موقع الخلافة المفقود في تقرير سيادة بغداد، فلما وصلت رسالة السلاجقة الى دار الخلافة، بادر الخليفة بمراسلة السلطان السلجوقي لتوطيد العلاقة بين الخلافة والقوة الجديدة الواعدة[٢٢].

ثم استطاع السلطان طغرل من فرض سيطرته على كل اجزاء ايران الغربية، فتمكن من السيطرة على قزوين، وابهر وزنجان وهمذان، واقليم اذربيجان، فخضع له بذلك امراء الديلم كما ارسل ثلة من جيشه لفتح كرمان التي قاومت كثيراً حتى توجه اليها بنفسه[٢٣]. وارسل اخاه من امه ابراهيم ينال الى همذان والاجزاء الغربية لدعم نفوذ السلاجقة فيها، فتوجه في عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م من كرمان الى همذان للقيام بهذه المهمة[٢٤]، ولكن الاحوال ظلت غير مستقرة في الاجزاء الوسطى والغربية من ايران، فعاود السلطان طغرل الكرة بنفسه في عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م، فتوجه الى هذه الجهات، واحس بتمرد اخيه ابراهيم، فراى ان يبدأ بهمذان، فارسل الى اخيه يطلب منه تسليم القلاع التي تحت يده، فلما رفض حاربه السلطان طغرل، ولكنه لم يصمد طويلاً فاستسلم لاخيه السلطان الذي عفا عنه، ولم يعاقبه على تمرده[٢٥]. واخذ طغرل بك بعد ذلك يتفقد الاقاليم الغربية من ايران، حتى ثبت سيطرة السلاجقة عليها، واعلن حاكم دياربكر الولاء لسلطانه[٢٦].

---

١٩ ـ ينظر: صالح رمضان حسن، مقاومة الخلافة العباسية، ص ٤.

٢٠ ـ الراوندي، راحة الصدور، ص ١٦٩.

٢١ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٥٦٢.

٢٢ ـ طالب جاسم حسن، المقاومة العربية، ص ٢٥٢.

٢٣ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٥٦٢ ـ عبد النعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٢٦.

٢٤ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٥٢٨.

٢٥ ـ عبد النعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٢٦.

٢٦ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٥٤٦.

وفي عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م توجه السلطان طغرل لفتح أصفهان والاجزاء الجنوبية من ايران ، فاستولى عليها ، وعلى اقليم فارس ، وبذلك اسقط الامارة البويهية من ال كاكوية في هذه المنطقة ، كما بسط نفوذه على مدينة يزد وماجاورها[٢٧] .

وفي عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م توجه السلطان طغرل الى اقليم اذربيجان ليؤكد سيطرة السلاجقة عليه ، فدخل تبريز ، ومد بحدوده الى اجزاء من اسيا الصغرى (بلاد الروم) . ثم رجع الى عاصمته الري[٢٨] . وفي الوقت نفسه اعلن قريش بن بدران صاحب الموصل ولاءهُ للسلاجقة في عام ٤٤٦ هـ[٢٩] .

وبذلك فرغ السلطان السلجوقي من فتح اكثر اجزاء ايران ، وبسط نفوذ السلاجقة عليها ، وعلى بعض البلاد المجاورة لها ، واخذ يستعد للسيطرة على بغداد[٣٠] .

المرحلة الرابعة : السيطرة على العراق :

إستمر تبادل الوفود والرسائل بين السلاجقة والخلافة العباسية حتى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، وقد أرسل السلطان طغرل بك وفداً في هذا العام ـ قبيل دخوله بغداد ـ يحمل رسالة يبالغ فيها باظهار الولاء والطاعة للخلافة العباسية ، ويعد الاتراك في بغداد ـ أحد عناصر الجيش البويهي ـ بالاحسان .[٣١] وبهذه الدبلوماسية الجيدة ، استطاع السلاجقة كسب الخليفة الى جانبهم ، وكانوا ماهرين في ذلك .[٣٢]

---

٢٧ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٢ ـ عبد النعيم سلاجقة ايران والعراق ، ص ٣٧ .

٢٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٩٨ .

٢٩ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٠٠ .

٣٠ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٣ ـ حلمي السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص ٢٨ .

٣١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ ـ ينظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، جـ ٤ ، ص ١٠ .

٣٢ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٤٢ .

وفي الوقت الذي سيطر فيه السلاجقة على الاقاليم الجنوبية والوسطى من ايران فضلاً عن أقاليم الجبال ، لم يبق بيد البويهيين الا العراق ، الذي كان ينوء بجملة من جراء السيطرة البويهية . ولم يفلح امراء البويهيين في تجاوز خلافاتهم ، فأتاحوا بذلك فرصة ملائمة للسلاجقة من أن يسيطروا على املاك البويهيين بيسر . هذا فضلاً عن تسلط العنصر التركي في الجيش البويهي الذي صار صاحب النفوذ الكبير ، فسيطر على امور الدولة ، وتدخل في تعيين امراء بني بويه .(٣٣) وبذلك حاول السلطان السلجوقي كسب مودتهم من اجل التمهيد للسيطرة على العراق .

وقام البويهيون في عام ٤٤٧ هـ بمحاولة فاشلة لاستعادة وجودهم في بلاد فارس ، حيث قام أحد قواد الديلم العسكريين (فولاذ) وهو صاحب قلعة اصطخر ، بالاستيلاء على مدينة شيراز ، وقطع خطبة السلطان السلجوقي طغرل بك ، واقام خطبة الملك الرحيم ، أخر حكام البويهيين في بغداد .(٣٤) فحفزت هذه الحادثة السلطان طغرل بك على قطع دابر البويهيين في اقليم فارس وفي العراق .(٣٥) فتهيأ لغزو العراق . وحين أطل السلاجقة بقوتهم على العراق ، كان أبو الحارث البساسيري قائد الاتراك يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة تامة ، ولم يكن الخليفة أو الملك الرحيم البويهي يملكان شيئاً أمام قوة هذا القائد وجنده .(٣٦) وفي الوقت نفسه كان التعاون معدوماً بين قائد الاتراك هذا وبين الخليفة وبين الملك الرحيم كذلك .(٣٧)

اما الخلافة العباسية فقد كانت مهددة من قبل الدولة الفاطمية التي وصل نفوذها الى أعالي الشام ، واطل على مشارف العراق ، حين استولت القوات الفاطمية على مدينة حلب في عام ٤٤١ هـ(٣٨) كما وصل تأثيرهم الى العراق ، وتعاون معهم البساسيري ، واتخذ جانبهم بعد ذلك بصراحة .

---

٣٣ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ .

٣٤ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٠٥ .

٣٥ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٥٨

٣٦ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٥ .

٣٧ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٨ .

٣٨ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٦٠ .

فاختلت الامور ببغداد : « ... وصار كل جندي فيها رأساً لنفسه ، وانقطعت موارد البلاد »(٣٩) ، وهذا النص يوضح مدى الفوضى السياسية واضطراب الامن فضلاً عن تدهور اوضاع العراق الاقتصادية .(٤٠) فالخليفة العباسي فقد الثقة بمن حوله ، والملك الرحيم البويهي مرتبك لايجد له مخرجاً من الازمة التي هو واقع فيها ، وكان ضعيفاً امام البساسيري كذلك ،(٤١) والوزير ابو القاسم علي بن المسلمة الملقب (رئيس الرؤساء) وجد في مراسلة السلطان السلجوقي مخرجاً له لكسب رضى من يرى فيه صاحب القوة العالية(٤٢) . والقائد البساسيري يرى أن قدوم السلاجقة الى العراق معناه زوال نفوذه ، فدخل من اجل ذلك في صراع شديد مع الوزير ابن المسلمة ، كما راسل الفاطميين في مصر وتعهد بالتعاون معهم ضد الخلافة العباسية .(٤٣) بعد أن أصبحت كل الظروف مهيأة لدخول السلاجقة بغداد ، تحرك السلطان طغرل بك عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م الى ان وصل الى حلوان ـ وطريق حلوان هو الطريق السهل الذي يوصل بشكل سريع الى قلب العراق ـ(٤٤) فخاف الناس في بغداد من هذا الغازي الجديد ، وتهيأ الجيش تحسباً لما سيستجد من امور .(٤٥) وهنا تبرز المهارة السياسية لطغرل بك من خلال ماأعده من تدبير لدخول بغداد دون احداث ضجة ، أو مواجهة صعاب من قبل المعارضين ، وذلك بطمأنة الخليفة العباسي وتهدئة الرأي العام واصحاب النفوذ بخدعة ، حيث أرسل وفداً يحمل رسالة الى ديوان الخلافة تتضمن الدعاء والثناء ، وان القصد من قدومه التبرك بزيارة بغداد ، وبعدها يذهب الى الحج والعمل على تعمير الطريق المؤدي الى الديار المقدسة ، ومن ثم مقاتلة اهل الشام والقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر .(٤٦)

نجح هذا الاسلوب في تهدئة النفوس ، وانخدعت الخلافة العباسية به كذلك ، على أمل الاستعانة بهم من أجل القضاء على الخصوم في مصر وبلاد الشام واليمن وبعض

---

٣٩ ـ ابن العمراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٨ .

٤٠ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٤٢ .

٤١ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٨ .

٤٢ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٦٩ .

٤٣ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٤٣ .

٤٤ ـ العالم الاسلامي في العصر الاسلامي ، ص ٥٦٨ .

٤٥ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٦٤ .

٤٦ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٠٩ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٩ .

مناطق افريقيا.[٤٧] لذلك أمر الخليفة القائم بامر الله بان يذكر اسم السلطان السلجوقي طغرل بك في الخطبة، وان يكون لقبه (السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين)[٤٨]، على ان يذكر بعد اسمه، اسم الملك الرحيم أبي نصر بن أبي كاليجار سلطان الدولة البويهية.[٤٩]

وزيادة في احكام الخطة بعث طغرل بك رسولاً أخر الى الخليفة العباسي يستأذنه في دخول بغداد فأذن له. وما أن وصل سلطان السلاجقة وجيشه الى النهروان حتى خرج لاستقبالهم وفد برئاسة الوزير (رئيس الرؤساء) وضم الوفد كبار موظفي الدولة من قضاة ونقباء. فلما علم طغرل بك بقدوم الوفد أرسل الى استقباله الامراء ووزيره أبا نصر محمد بن منصور الكندري، وهو أول وزراء آل سلجوق.[٥٠] ولما التقى رئيس الرؤساء بطغرل بك ابلغه رسالة الخليفة «واستحلفه له وللملك الرحيم ولامراء الاجناد، فأجابه».[٥١] ثم واصل طغرل بك سيره الى أن دخل بغداد في يوم الاثنين ٢٥ رمضان من عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م، في موكب ضخم،[٥٢]، ونزل بباب الشماسية، ووصل اليه قريش بن بدران صاحب الموصل، وكان في طاعته.[٥٣] فأستقبل أروع استقبال، واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يديه.[٥٤]

ولكن طغرل بك لم يهدأ له بال، قبل ان يباشر بتنفيذ وتحقيق الاهداف الاخرى التي جاء من اجلها الى بغداد، لأن ماانجز في الوصول الى مركز الشرعية واعلان الخطبة له، كان فرصة مناسبة دفعته للانفراد بالسلطة دون منافس، وذلك بازاحة الوجود السياسي للبويهيين كلياً.[٥٥] لذلك صمم طغرل بك على التخلص

---

٤٧ ـ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي، ص ١٠٢ ـ فاروق عمر فوزي. الخلافة العباسية في عصرها المتأخرة، ص ٧٨.

٤٨ ـ عبد النعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٢٩.

٤٩ ـ ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ١٦٤ ـ ابن الاثير، الكامل، جـ ٩، ص ٦١٠.

٥٠ ـ تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢.

٥١ ـ ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ١٦٤

٥٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ٦٦.

٥٣ ـ حسين امين، تاريخ العراق، ص ٦٠.

٥٤ ـ عبد النعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٢٩ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٥٦٨.

٥٥ ـ صالح رمضان حسن، مقاومة الخلافة العباسية، ص ٤٦.

من الملك الرحيم ، غير عابئ بما يترتب على ذلك من احراج للخليفة العباسي ، فقبض عليه وارسله اسيراً الى الري ، وسجن في قلعة طبرك الى ان توفي عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .(٥٦) ورافق دخول الجيش السلجوقي بغداد ، استياء الشعب من تصرفات جيش الاحتلال ، حيث وقع إصطدام بين الشعب وجند الاحتلال ، بسبب مارافق ذلك من اسراف في ارتكاب الفواحش ، لانفلات رجال الجيش السلجوقي ، فنهبوا الاسواق والبيوت واحدثوا جرائم كثيرة .(٥٧) وقد اشار الى ذلك ابن الجوزي بقوله : « وثارت بين العوام والاتراك فتنة ، أدت الى قتل وأسر ، فنهب الجانب الشرقي باسره وذهبت اموال الناس » .(٥٨) وقد أثارت هذه الاعمال الهمجية ردود فعل عارمة من الغضب بين اوساط الشعب ، فهاجموا عسكر السلاجقة ووقع قتال بين الطرفين .(٥٩) وقد إستاء الخليفة العباسي من هذه الاعمال الشنيعة ، وارسل الى السلطان السلجوقي يبلغه إستياءه ، وان الامال فيه قد خابت .(٦٠)

وبذلك زالت السلطة البويهية وقامت بدلاً منها سلطة اجنبية اخرى ، لم تختلف كثيراً عن الاولى ، وقد استقبلها الشعب بثورة عارمة .(٦١)

سلاطين السلاجقة الاقوياء : ٤٤٧ ـ ٤٨٥ هـ

١ ـ السلطان طغرل بك (الاول) ٤٤٧ ـ ٤٥٥ هـ / ١٠٥٥ ـ ١٠٦٣ م

٢ ـ السلطان عضد الدين ألب أرسلان ، ٤٥٥ ـ ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢ م

٣ ـ جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م

وبعد وفاة ملكشاه ولي ابنه بركيا روق (٤٨٥ ـ ٤٩٨ هـ ١٠٩٢ ـ ١١٠٤ م)(١) ، الذي تبدأ في عهده المنازعات والحروب الداخلية مع اخوته واعمامه ، مما ادى الى تفكيك الدولة ، واصبحت عاجزة عن صد غارات الطامعين أمثال قبائل الغز والقره

---

٥٦ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٦٩ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٦٠ .

٥٧ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٤٦ .

٥٨ ـ المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٦٥ ـ ينظر ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٩٦ .

٥٩ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٦٦ .

٦٠ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦١٣ ـ حسين أمين ، تاريخ العراق ، ص ٦٠ .

٦١ ـ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص ٢٥٤

١ ـ ابن الاثير ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٠ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٩٤ .

خطناي ، كما هزمت جيوشها امام ملوك خوارزم . وذلك في فترة عرفت بعصر الاتابكيات السلجوقية .[٢]

وضمن هذه الفترة ندرس المواضيع الآتية :

١ ـ أهم الاحداث في عصر كل سلطان .

٢ ـ التسلط السلجوقي وتجاوزاته

٣ ـ الصراع بين افراد البيت السلجوقي .

٤ ـ موقف الخليفة والشعب من التسلط السلجوقي .

أولا : أهم الاحداث

أ ـ عصر السلطان طغرل بك (الاول) ٤٤٧ ـ ٤٥٥ .

من الاحداث المهمة في عصر هذا السلطان ، فتنة أبي الحارث البساسيري وتطورها :

كان البساسيري مملوكاً تركياً لبهاء الدولة البويهي ، وانتقل في وظائف الدولة الى أن جعله الخليفة القائم بامر الله قائداً لحرسه وأصبح من الرجال المقربين للخليفة . وقد أثار إزدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير ابي القاسم علي بن المسلمة (رئيس الرؤساء) . فأخذ هذا الوزير يفسد مابين الخليفة وبين قائد حرسه ، وبخاصة ان الخليفة العباسي عرف بعض نوايا هذا القائد الذي يسعى للاطاحة بالخلافة العباسية ، عن طريق تعاونه مع الدولة الفاطمية في مصر .[٣] فغضب الخليفة على قائد حرسه فاضطر الى الهرب من بغداد الى مدينة الرحبة .[٤]

وبدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، بدأت مرحلة رجديدة من الصراع مع البساسيري ، الذي إتصل بالخليفة الفاطمي في مصر (المستنصر بالله أبي تميم) ، وطلب منه الانجاد للسيطرة على العراق وطرد السلاجقة منها . فوافق هذا الامر هوى كبيراً في نفس الخليفة الفاطمي الذي شعر بخطورة ما حصل في العراق على مستقبل نفوذهم في بلاد الشام ، ولاسيما بعد زوال النفوذ البويهي . لذلك قدمت الدولة الفاطمية المساعدات العسكرية والمالية للبساسيري .[٥]

---

٢ ـ احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٩٣ ، ص ١٩٧ .

٣ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٩ ، ص ٤٠٠ .

٤ ـ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ص ١٨١ .

٥ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٩ ، ص ٤٠٠ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ١٠ .

وقد بذل الفاطميون جهوداً كبيرة بوساطة ممثليهم العديدين في البصرة مثل ابن موسى بن عمران ،(٦) الذي وصل الى الرحبة للقيام بالتحضيرات والاشراف على الاستعدادات لمواجهة السلاجقة والخلافة العباسية . ونجح في عقد عدد من الاتفاقات مع الامراء المحليين في بلاد الشام والعراق واغراهم بالخلع والانضمام . فهيأ للبساسيري قوة كبيرة مكنته من الحاق الهزيمة بجيش السلاجقة في جمادى (٧) وفي الوقت نفسه قام المؤيد في الدين بنشاط سياسي يهدف شق صفوف السلاجقة ، فاتصل بوزير السلطان طغرل بك محرضاً اياه خلع الخليفة العباسي والدخول في طاعة الفاطميين . فلم تفلح مساعية هذه(٨) . الا ان جهود البساسيري نجحت في تحريض ابراهيم ينال على أخيه السلطان طغر بك . الذي تمرد عليه ، مما اضطر السلطان طغر بك الخروج لقمع تمرد اخيه في اقليم الجبال عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، ولكن السلطان انهزم امام اخيه في همدان .(٩) فخرجت القوة المتبقية في بغداد لنجدة السلطان باتجاه همدان ، وبذلك خلت بغداد من الجيش وفقدت الحماية ، فانتهز البساسيري هذه الفرصة وهاجم بغداد وسيطر عليها في شهر ذي القعدة من عام ٤٥٠ هـ .(١٠)

قبض البساسيري على الوزير أبي القاسم بن المسلمة ، وانتقم منه شر انتقام ، ومات بعد عذاب شديد .(١١) اما الخليفة العباسي القائم بامر الله فقد نهبت داره ، وسلمه البساسيري الى مهارش صاحب حديثة وهو ابن عم قريش بن بدران ، وفرضت الاقامة على الخليفة في مدينة عانة .(١٢) وسيطر البساسيري على بغداد وواسط والبصرة مايقارب العام ، وكان يخطب للخليفة الفاطمي في مصر(١٣)

---

٦ ـ حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٩٢ .

٧ ـ ابن العمراني ، الانباء ، ص ١٩٠ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٥٠

٨ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٥٤

٩ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ١٩١ .

١٠ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٩ ، ص ٤٠١ ـ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ـ ينظر ، حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٤١ .

١١ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٧ .

١٢ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٥ .

١٣ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٩ ، ص ٤٠٢ ـ الصياد ، في مقدمة التاريخ العربي والاندلسي ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣

Hitti, History of Islam, p: 152

وكان من المنتظر ان يواصل الخليفة الفاطمي دعمه لحركة البساسيري بالمال والسلاح . ولكنه لم يفعل . ويعلل المؤرخون الامر الى عدم ثقة الخليفة الفاطمي في البساسيري من جهة ، والى الازمة الاقتصادية الخطيرة التي حلت بمصر في ذلك الوقت وهي المعروفة باسم الشدة العظمى من جهة اخرى . (١٤)

استمرت حركة البساسيري من عام ٤٥٠ هـ الى عام ٤٥١ هـ . ولكن بعد انتصار السلطان طغرل بك على اخيه ابراهيم ينال ومقتله ،(١٥) رجع الى العراق وعمل على إعادة الخليفة العباسي الى كرسي الحكم في بغداد بالتعاون مع مهارش .(١٦) وبعد ان اطمأن السلطان طغرك بك على سلامة الموقف في بغداد ، سار الى الجلة حيث يوجد هناك البساسيري . فحاربه وهزمه وقتله ، وذلك في اواخر عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م(١٧) . وبذلك تخلصت الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة من خصم لدود أقلقهم وهدد نفوذهم في العراق وكاد يعصف بهم جميعاً .(١٨)

ب ـ عصر السلطان ألب أرسلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥ هـ .

ولي أمر السلطنة بعد وفاة عمه طغرل بك ، وأحيا الروح الحربية الاسلامية ، وحمل لواء الجهاد ضد الدولة الفاطمية أولاً ، وضد بلاد الروم ثانياً .(١٩) وخلال فترة حكمه لم يزر بغداد ، ولكن عموماً كانت علاقته حسنة مع الخلافة العباسية ، ويعرف امورها عن طريق الشحنة السلجوقي في بغداد (المسؤول العسكري) والعميد (المسؤول الاداري)(٢٠) .

---

١٤ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٥ ـ ١٦ .

١٥ ـ ينظر ، حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٦٧ ـ عبدالنعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٤١ ـ ثلجي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٣ ، ص ٤٢٩ .

١٦ ـ ينظر ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٠٥ وبعدها .

١٧ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٩ ، ص ٤٠٤ ـ ابن خلدون ، ٣ / ٤٦٥

١٨ ـ صالح رمضان حسن ، مقاومة الخلافة العباسية ، ص ٦٠ ـ حسين امين تاريخ العراق ، ص ٦٩ .

١٩ ـ النبهاني ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٤ .

٢٠ ـ حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٧٢ ـ العراق في التاريخ ، ص ٤٤٥ .

قبل ان يبدأ السلطان الب أرسلان ، بعملياته العسكرية مع الدولة الفاطمية غرباً ، والدولة البيزنطية شمالاً ، قرر أن يؤمن جانبه من ناحية الشرق ، وذلك بتجنب مخاطر الدولة الغزنوية في غزنه والهند ، والدولة الخانية في بلاد ماوراء النهر ، اللتين لاتزال فيهما بقية من قوة . فارتبط بهما برباط المصاهرة ، فزوج ابنه ملكشاه بأبنة خاقان ملك الخانيين ، وزوج ابنه أرسلان شاه بأبنة صاحب غزنة ، وبذلك ارتبطت الدول الثلاث برباط المصاهرة ، وبهذا هدأ بال السلاجقة واطمأنوا الى جانب الشرق ، فانصرف سلطانهم الى تحقيق اهدافه الكبرى في بلاد الشام ، والاقاليم المسيحية المجاورة لدولتهم .(٢١)

رأى السلطان ألب أرسلان أن يبدأ بالسيطرة على حلب وشمالي الشام ، كي يحمي ظهره من الخطر الفاطمي قبل التوغل في أرض الروم شمالاً .(٢٢) وكانت حلب تحت حكم الدولة المرداسية ، وأميرها محمود بن صالح بن مرداس الكلابي ـ وقد استقل والده صالح الكلابي يحكم حلب عن الدولة الفاطمية عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م وحمت هذه الدولة شمال الشام من خطر الدولة البيزنطية ـ فلما علم الامير المرداسي محمود بسير السلطان الب ارسلان الى بلاده ، أعلن ولاءهُ للدولة العباسية وخطب للخليفة العباسي القائم بامر الله والسلطان السلجوقي ، فارسل الخليفة العباسي الى محمود بن مرداس الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزيني فلبسها ومدحه الشعراء .(٢٣)

وبعد وصول السلطان الب ارسلان الى حلب ، وكان مندوب الخلافة الزيني لايزال بها ، طلب منه الامير محمود أن يخرج الى السلطان السلجوقي ليعفيه من الحضور عنده والمثول بين يديه . فخرج نقيب النقباء واخبر السلطان بان الامير محمود قد لبس خلع الخليفة القائم وخطب له وللسلطان . فأصر السلطان السلجوقي على حضور الامير محمود بين يديه ، فامتنع محمود من ذلك ، فاشتد الحصار على حلب وغلت الاسعار ، وعظم القتال ، فلما عظم الامر على الامير محمود ، خرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب التميري ، واعلن طاعته للسلطان السلجوقي الذي خلع عليه ، واعاده الى بلاده .(٢٤) ولم يكتف السلطان الب أرسلان بالاستيلاء على

---

٢١ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٤ ـ عبدالنعيم ، ملاحقة إيران والعراق ، ص ٥٢ .

٢٢ ـ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٤ .

٢٣ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٤ ـ ينظر ، عبدالنعيم ، ملاحقة ايران والعراق ، ص ٥٥ .

٢٤ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ ـ ابن خلدون ، ٥ / ٢ .

حليف ، في نفس السنة (عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) أميراً تركياً اسمه (أتسز بن أوق الخوارزمي) إلى فلسطين التي كانت تحت حكم الدولة الفاطمية ، ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وباقي مدنها من بلاد ماعدا عسقلان ، ثم قصد مدينة دمشق وحاصرها وضيق عليها وطمع المؤن عنها ولكنه لم يستطع السيطرة عليها .(٢٥)

وهكذا يتضح من تحركات الجيش السلجوقي في بلاد الشام ، انه كان يهدف الى ضرب الفاطميين في بلاد الشام قبل التوجه شمالاً الى جبهة البيزنطيين .(٢٦)

قرر السلطان ألب أرسلان أن يبدأ بفتح الاقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الارمن وجورجيا والاجزاء المجاورة من بلاد الروم . وكان أهلها يكثرون من الاغارة على اقليم اذربيجان ، حتى أضبحوا مصدر قلق لسكانه ، فأراد السلطان ألب أرسلان أن يضع حداً لغاراتهم ، ويضع يده على بلادهم ، لانها كانت النوافذ التي تطل على ممتلكات الدولة البيزنطية .(٢٧)

وفي بداية تشرين ، بعد ان تجاوز اذربيجان ، من الاستيلاء على الجزء الاكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتي وان وأورومية ، كما فتح جورجيا وبلاد الارمن ، وبسقوط مدينة آن عاصمة أرمينية القديمة ـ وهي الحصن الذي حمى الدولة البيزنطية من خطر الغزوات الشرقية ـ انفتح الطريق أمام القوات السلجوقية لتتغلغل في الاقسام الموجهة للروم في الولايات الارمينية والاناضولية والكبادوكية ، وتتوسع في مسيرها في اسيا الصغرى حتى وصلت الى عمورية ، بعد ان ضربت قبادوكيا كلها .(٢٨)

---

٢٥ ـ الراوندي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٥ ـ عبدالنعيم ، ملاحقة ايران والعراق ، ص ٥٥ ـ عوني ، العلاقة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ٨٠

٢٦ ـ الحسن الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٥ .

٢٧ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٢ ـ ٩٤ ـ ابن خلدون ، ٥ / ٣ .

٢٨ ـ الراوندي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٥ ـ عبدالنعيم ، ملاحقة ايران والعراق ، ص ٥٥ ـ عوني ، العلاقة العباسية في عصورها المتأخرة ، ص ٨٠

٢٩ ـ الحسن الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٥ .

٣٠ ـ عبدالنعيم ، ملاحقة ايران والعراق ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

٣١ ـ الحسن الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥ .

وقد أغضبت فتوحات السلطان الب ارسلان هذه ، امبراطور الروم (رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes) الذي قاد في حماس بالغ الى ميدان القتال كل رجل استطاع ان يجنده من الولايات الاوربية والأسيوية . وبقي ثلاث سنوات بعد العدة في ارمينيا وكبادوكيا محاولاً ضرب السلاجقة بدون جدوى ، ثم قصد بلاد الشام والحق هزيمة بقوات امير حلب المرداسي ، ولكنه لم يستطع تحقيق نصر حاسم فاضطر الى التراجع[٢٩] . فهذا الامر هو الذي مهد لحركات الب ارسلان العسكرية في بلاد الشام كما وضحنا ذلك في اعلاه . فادرك الامبراطور البيزنطي مايرمي اليه السلاجقة فقام بحركة مضادة . بعد ان جمع جيشاً جراراً في نحو مئتي الف مقاتل من الروم والروس والارمن والبلغار واليونانيين والفرنسيين والجورجيين ، وزحف شرقاً مخترقاً آسيا الصغرى ، حتى بلغ بلدة (ملاذ كرد Manzikert) من اعمال اخلاط على الفرات الاعلى شمالي بحيرة فان Van عند ارمينية[٣٠] . وفطن السلطان ألب أرسلان لخطة العدو وكان في ذلك الوقت قد بلغ اذربيجان في خمسة عشر الف فارس فقط[٣١] ، فتقدم حالاً لوقف زحف العدو ولكنه ادرك انه من الصعب ان يقاتل جيشاً ضخماً ، وادرك ان الصلح قد يكون خيراً له ، وفضل ان يرجى غزو بلاد الروم الى وقت آخر بعد ان يستكمل استعداداته ، فارسل رسولاً الى رومانوس يدعوه الى الصلح ، ولكن الامبراطور اصر على الحرب ومواصلة الزحف حتى يسيطر على مدينة الري عاصمة السلاجقة[٣٢] .

قرر السلطان السلجوقي مواجهة العدو ، واختار بان يكون اللقاء في يوم الجمعة ، وفي الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر ، وبذلك ألهب السلطان السلجوقي في نفوس جنوده الحماس الديني ، وكان قدوة لهم ، بما ابداه من تضرع لله حتى لقد نزل عن جواده ، ومرغ وجهه في التراب خضوعاً لله تعالى واكثر الدعاء ، وهجم على جيش العدو بحماس عال وتبعه جنده بنفس الحماس ، فكان نصراً كبيراً للمسلمين ، فقد العدو ألاف القتلى والاسرى حتى الامبراطور البيزنطي وقع بالأسر وحمل الى السلطان الب ارسلان الذي عامله

---

٢٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٥٤ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٥٩٥ .

٣٠ ـ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٥ .

٣١ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ١٨٩ ـ حسين امين ، تاريخ العراق ، ص ٧٤ .

٣٢ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٥٦ ـ شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

بكل كرم ولطف . فافتدى الامبراطور نفسه بالف الف دينار وخمسمائه الف دينار (مليون ونصف) ، وعقد معه معاهدة مدتها خمسون سنة ، تعهد فيها امبراطور الروم بدفع الجزية للسلاجقة ، وبات يرسل الى السلطان عساكر الروم حين يطلبها ، وبات يطلق له كل اسير من المسلمين في بلاد الروم(٣٣) .

وبعد عودة الامبراطور الى بلاده ، ثار عليه احد اعوانه ، وقبض عليه وعذبه وسمل عينيه الى ان مات ، ولكن خلفهُ أقر المعاهدة ، وبذلك صرف الروم نظرهم نهائياً عن آسيا الصغرى(٣٤) .

تعد معركة ملاذ كرد في عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م من المعارك الحاسمة في التاريخ ، افرزت نتائج سياسية وحربية خطيرة من اهمها :

١ ـ مهدت الطريق امام جيوش المسلمين للتوغل في اسيا الصغرى ، واقتطاع هذه الاقاليم الاسيوية من ممتلكات الدولة البيزنطية لاول مرة . فقد وجه اليها السلطان الب ارسلان ابن عمه سليمان قتلمش الذي استوطنها برجاله واقام هناك دولة سلاجقة الروم(٤٤) .

٢ ـ كانت هذه المعركة من اهم الاسباب التي ادت الى قيام حروب الفرنجة عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م(٤٥) ، وذلك لان اخبار هزيمة الروم هذه اثارت مخاوف الدولة الاوربية . وعلى الرغم من العلاقات العدائية بين روما والقسطنطينية ، الا ان الغرب الاوربي ينظر الى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الامامي الذي يحمي اوربا من خطر الشرق الاسلامي ، ومن ثم يجب على الغرب الاوربي ان يمد للقسطنطينية يد المساعدة . وقد اهتم البابوات في روما بامر هذه المساعدة ، وبخاصة البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ م) والبابا اوربان الثاني

---

٣٣ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦ وبعدها ـ الرواندي ، راحة الصدور ، ص ١٨٩ ـ الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٦ ـ فوزي ، الخلافة العباسية في عصورها المتاخرة ، ص ٨٠ ـ ابن خلدون جـ ٣ ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ـ حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ٢٥ .

٣٤ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٦ .

٤٤ ـ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٧ .

٤٥ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٧ ـ غلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، جـ ٣ ، ص ٤٢٩ ـ فوزي ، الخلافة العباسية في عصورها المتاخرة ، ص ٨١ .

(١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م) فاخذوا يحرضون ملوك اوربا على مساعدة الدولة البيزنطية ، واتخذوا من هذه المسالة عاملاً مهماً لتحقيق اهدافهم المتعصبة(٤٦) .

جـ ـ عصر ملكشاة ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ :

لم يقتصر ملكشاة على الولايات التي ورثها عن ابيه ، بل صمم على توسيع دولة السلاجقة ، وبسط نفوذها حتى يشمل جميع انحاء العالم الاسلامي ، بما في ذلك الاقاليم التي تحت سيطرة الدولة الفاطمية . فبدأ عهده بارسال الجيوش التي سيطرت على معظم بلاد الشام ، ثم ارسل جيشاً دخل الاراضي المصرية وتوغل حتى وصل القاهرة وحاصرها ، ولكنه لم يستطيع فتحها لشدة مقاومة الفاطميين واستماتتهم في الدفاع عنها(٤٧) . فاضطر جيش السلاجقة الى الرجوع الى بلاد الشام ، ولم يفكر بعد ذلك في غزو مصر مرة اخرى ، غير ان السلاجقة حرصوا على تامين بلاد الشام وانتزاعها نهائياً من الفاطميين . ولذلك اسند السلطان ملكشاة امر بلاد الشام الى اخيه تاج الدين تتش في عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وسمح له بفتح مايستطيع فتحه من الاقاليم المجاورة وضمها الى دولة السلاجقة(٤٨) .

وفي عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م سار تتش الى حلب ليردها الى منطقة نفوذه ، فحاصرها حتى حلت باهلها المجاعات . وانتهز الفاطميون فرصة انشغال تتش باعادة فتح حلب فارسلوا جيشاً لفتح دمشق ، الذي شدد عليها الحصار ، فاستنجد واليها بتتش الذي اسرع لنجدته ، فانسحب الجيش الفاطمي عنها ، ودخل تتش دمشق عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م واتخذها مقراً له ، واسس فيها دولة سلاجقة الشام(٤٩) .

وفي نفس الوقت الذي عين فيه السلطان ملكشاة اخاه تتش على الشام ، عين سليمان بن قتلمش بن اسرائيل والياً على البلاد التي فتحها السلاجقة في آسيا الصغرى ، وذلك في عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م . فسيطر سليمان على ولايتي آق سرا ،

---

٤٦ ـ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٦٠ .

٤٧ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧ وبعدها .

٤٨ ـ العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٥٩٩ ـ فاروق عمر فوزي الخلافة العباسية في عصورها المتاخرة ، ص ٨١ .

٤٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١١ .

عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ص ٩٤ .

وقونية. ويعد هذا المؤسس الفعلي لدولة سلاجقة الروم التي استمرت في حكم البلاد الى عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م.(٥٠)

وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى، ثم حاول التوسع بفتح اقاليم جديدة، ففتح مدينة انطاكية من عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م؛ وكانت من بلاد الشام غير انها كانت تحت حكم الروم منذ عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م.(٥١) ولذلك فان فتحها كان بالغ الاهمية لانه اوصل نفوذ السلاجقة الى سواحل البحر المتوسط.(٥٢)

ولكن فتح سليمان لمدينة انطاكية، اوقع الخلاف بين افراد البيت السلجوقي، اذ بدأ الصراع بين سليمان وتتش، فقد حاول كل منها ان يوسع منطقة نفوذه على حساب الاخر. وقد بدأ سليمان بالعدوان، اذ اتجه الى حلب ليضمها الى نفوذه وحاصرها، فاستنجد حاكمها بتتش الذي تقدم بقواته صوب حلب، فدارت بين الطرفين معركة حامية قتل فيها سليمان عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ودخل تتش حلب.(٥٣)

أحس السلطان ملكشاة بخطورة هذا الأمر، فسار بنفسه الى بلاد الجزيرة والشام، واخضع في طريقه ماصادفه من حصون كانت لاتزال تحت حكم الروم مثل الرها. ولما اقترب من حلب رحل عنها تتش الى دمشق، فدخلها السلطان وطمأن اهلها ثم رجع الى بغداد، بعد ان امر حكم تتش على بلاد الشام، كما أمر حكم اولاد سليمان على بلاد الروم.(٥٤)

ثانياً: التسلط السلجوقي وتجاوزاته في عصر السلاطين الكبار:

خلال عصر تسلط البويهيين على العراق، حاولوا باساليب مختلفة إفساد العقيدة الاسلامية، وهدم الشخصية العربية، وقد فصلنا هذا الامر في الفصل السابق. وفي

٥٠- العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٥٩٩.
٥١- ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص ١٣٨.
٥٢- عبدالنعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٦٥.
٥٣- ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص ١٤٧.
٥٤- العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٦٠٠- عبدالنعيم، سلاجقة ايران والعراق، ص ٦٦.

الفصل الخامس*

العصر العباسي الاخير

خلافة الناصر لدين الله وسقوط الخلافة العباسية

٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م ـ ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

(١)

خلافة الناصر لدين الله

٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م ـ ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م

ولي الناصر لدين الله ، احمد ابوالعباس ، الخلافة اثر وفاة والده المستضيء ، وهو بحدود الثانية والعشرين من العمر ، وذلك سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م وقد بقي الناصر خليفة مدة سبع واربعين سنة ، وهي اطول فترة يمكثها خليفة في تاريخ الدولة العباسية .

لقد وقف المؤرخون مواقف مختلفة عند تقييمهم لشخصية الخليفة الناصر وكفاءته وسياسته . ومالت الاغلبية الى مدحه والاطراء على شخصيته واستحسان سياسته كعبد اللطيف البغدادي وابن النجار والذهبي ، وانفرد قلة من المؤرخين بالتعريض به ووصف سياسته بالتناقض والانشغال بالتافه من الهوايات كابن الاثير في كتابه الكامل وابن واصل الذي ربما نقل عنه .[١]

كان الناصر رجلاً مثقفاً ، سمع الحديث ودرسه ، كما انه قام باسماعه لغيره اثناء فترة خلافته ، ومنح الاجازة لمن قرأ عليه ، وحتى لقد روي انه اعطى الاجازات بالتحديث للملوك والعلماء . وقام ايضاً بنفسه بجمع كتاب في الاحاديث النبوية اسماه « روح العارفين » ، وراج كتابه هذا حتى يقال بانه وصل الى مدن خارج بغداد ، كحلب حيث سمعه الناس فيها[٢]

*كتبه الدكتور جزيل عبدالجبار الجومرد

ـ الناصر والسياسة :

عاش الناصر في عصر حصلت فيه الكثير من التغيرات في البنية السياسية للدولة العباسية والعالم الاسلامي . فقد بدأت قوة السلاجقة بالتلاشي بعد فترة من الضمور والتمزق . وظهرت دول جديدة على حساب اقاليم السلاجقة في الشرق كالدولة الخوارزمية التي سبق ذكرها والتي كان على حد سيفها نهاية سلاجقة العراق . ثم الدولة الغورية والدولة القره خطائية . وفي هذه الفترة ايضاً حدث خروج مصر من عزلتها الفاطمية وعودتها الى جسم الدولة العربية الاسلامية بجهود نورالدين محمود واسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبي . واخيراً فقد برزت الى مسرح الاحداث في هذا العصر قوة وثنية جديدة تلك هي المغول الذين هاجموا الدولة الخوارزمية

خارطة القسم الشرقي من الدولة العباسية

عند تولي الخليفة الناصر لدين الله الخلافة (٥٧٥هـ/١١٨٠م)

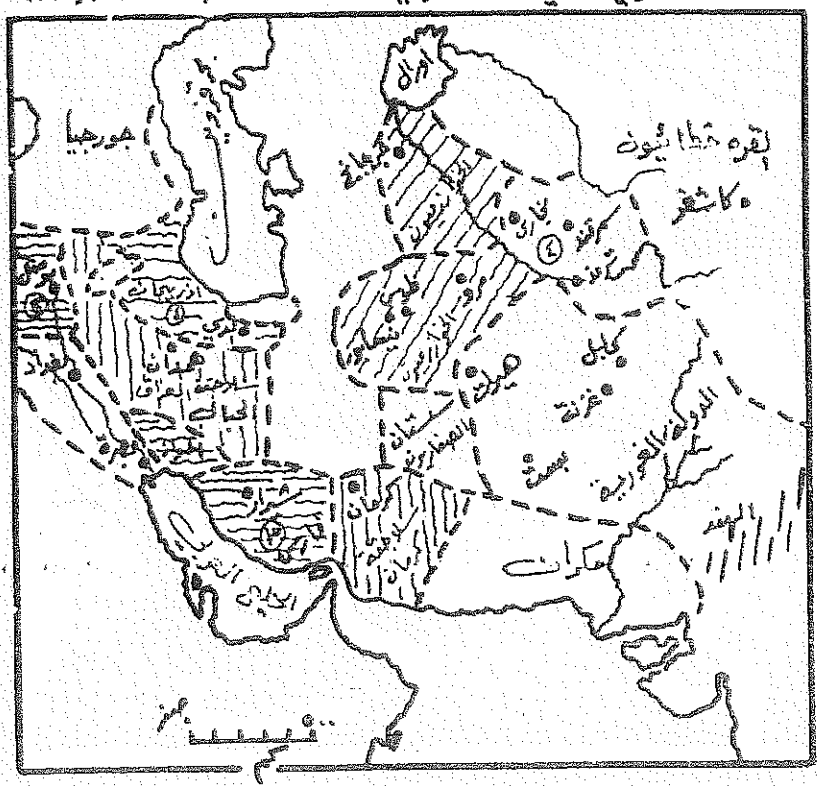

① اتابكية ايلدكز في اذربيجان .
② اتابكية زنكي في الموصل والى الشمال منها الدولة الاتابكية .
③ اتابكية بني سلغر في فارس .
④ القره خانيون .

وقوضوا بنيانها رغم قوتها ثم اذا بهم يرتطمون بجدران عاصمة الخلافة العباسية ، بغداد ، فيسقطون الخلافة العباسية فيها . في وسط حركة هذه القوى وتصارع مصالحها وتضاربها كان على الخليفة الجديد ، الناصر ، ان يحدد موقفه ويرسم سياسته لكي يحافظ على الخلافة واستقلالها ، واكثر من هذا لكي يفرض احترامه وهيبته على هذه القوى ، ولم يكن ذلك بالامر اليسير . لم يرتض الخليفة ان يقبع في بغداد وحدها ينتظر ان يداهمه الاخرون فيها بل حاول الخروج بسياسته من حدودها لكي يبسط هيمنته المعنوية على الاقل ويمنع من قد يفكر بمهاجمته وذلك بتأليب قوة اخرى عليه تعيقه عن الاضرار بالخلافة ، وطالما انه لم يكن يمتلك جيشاً كبيراً فسياسة ضرب القوى المتنافسة ببعضها وتأليب الصغار على الكبير كانت جزءاً من سياسته . فهو كما يقول احد المؤرخين « كانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفطن لها احد ، يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون »[٣] . ولكي يتم كل ذلك للناصر كان عليه ان يكون ملماً باخبار الدولة ، وباخبار السلاطين والامراء ، ولهذا فقد كون لديه نظاماً للاستخبارات كان بالغ الدقة والكفاءة في تزويده بدقائق الامور وتفاصيلها عن كل ما يحدث في كل مكان من الدولة وقد اشار الى هذا اكثر من مؤرخ ، ومن ذلك قول احدهم « كان الناصر شهماً شجاعاً ذا فكرة صائبة وعقل رصين ومكر ودهاء وله اصحاب اخبار في العراق وسائر الاطراف يطالعونه بجزيئات الامور »[٤] ويقول آخر « وكان .. شديد الاهتمام بمصالح الملك لا يخفى عليه شيء من احوال رعيته كبارهم وصغارهم ، واصحاب اخباره في أقطار البلاد يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنة .. »[٥] وقد بالغ بعض المؤرخين في رواية قصص في هذا المجال يمكن اعتبارها من باب المبالغات الشعبية .[٦] وسنرى من خلال الصفحات القادمة شيئاً عن السياسة الفعلية لهذا الخليفة .

ـ الناصر ونهاية السلاجقة :

بموت السلطان سنجر ، اقوى واخر سلاطين سلاجقة خراسان ، ضعف حال السلاجقة عامة . وسلاجقة العراق خاصة . ذلك انه سرعان ما سيطر الخوارزميون على ممتلكات سنجر واصبحوا في الباحة الخلفية لسلاجقة العراق . في هذه الفترة . وهي الستينات والسبعينات من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، كان امراء

المعنوية فقط . وكان يأخذ جانب من يضنه اقل المتصارعين سوءاً وربما اعتقد انئذ ان خوارزم شاه علاءالدين تكش اذا ماانتصر فانه سيبقى بعيداً عن العراق رطالما ان مركز دولته في الاساس نإء عن بغداد ، لا كما هو الحال مع طغرل ، الذي مركزه همدان ، والذي طالما نوه برغبته بان يفرض كلمته على الخليفة وعلى عاصمته . وبهذا فقد بقي طغرل وحيداً عندما سار اليه علاء الدين تكش من نيسابور ، والتقى الجمعان قرب الري وقد شابت عسكر طغرل الفرقة والاضطراب والنقص ، فدارت عليه الدائرة وخسر المعركة وقتل فيها سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م .(١٤) وبمقتله انتهى عهد سلاجقة العراق الى الابد وحل محلهم الخوارزميون ، لكي يكون لعلاقاتهم مع الخليفة العباسي تاريخ آخر جديد .

ـ الناصر والخوارزميون

بدأت قوة خوارزمشاه تكش تزداد اثر انتصاره على اخر سلاطين سلاجقة العراق طغرل ، فاصبحت سطوته تمتد على بلاد كثيرة ضمّت خراسان والري واصفهان فضلاً عن خوارزم مقر ملكه . ولقد رأينا كيف ان الخليفة الناصر استدعاه للقضاء على طغرل وفي نفس الوقت ارسل له بعض القوات لتساهم معه في تلك المهمة . ولكن خوارزمشاه تكش انجز المهمة دون ان يشارك عسكر الخليفة ،الذي وصل متأخراً ،فيها ويبدو ان الخليفة كان من الدهاء بحيث انه لم يكن راغباً في زج قواته الثمينة المحدودة التي هو بحاجة اليها في معركة رغب ان ينهيها خوارزمشاه بنفسه . وبدا ايضاً بان الشك كان قائماً بين الخليفة وخوارزمشاه ، فقد ارسل مع جيشه وزيره ومعه الخلعة ، ولكن الوزير وقف عند همدان وطالب خوارزمشاه بالقدوم اليه ليلبسه الخلعة ولم يتقدم اليه بنفسه ، وربما كان غرض الخليفة ووزيره من وراء ذلك اختبار مدى احترام خوارزمشاه تكش لمشيئة الخلافة ، بينما راود الشك خوارزمشاه نفسه عندما اخبر ممن حوله انها حيلة لجلب خوارزمشاه اي معسكر الوزير والقبض عليه مما دفع بتكش الى محاولة اخذ الوزير بالقوة فهرب الاخير ولم يجتمع الفريقان .(١٥)

يبدو الان بان الخليفة قد امتلك حرية اكبر في التصرف فقد عاد خوارزمشاه الى خوارزم وترك ولاةً له في اراضي شرقي العراق فلجأ الخليفة الى ارسال وزيره الى الاحواز فاخذها وضمها لسيطرة الخليفة في نفس السنة .(١٦) ثم قام في السنة التالية بارسال جيشه فاخذ اصفهان من قوات خوارزمشاه .(١٧) ومرت فترة من المد والجزر

والخليفة يحاول السيطرة على همدان والري وخوارزمشاه يسترجع ذلك ، وفي النهاية تمكن الاخير من استعادة همدان والري سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م ، عندئذٍ لجأ الخليفة الناصر الى الاسلوب الترغيبي الترهيبي لاخذ هذه البلاد من يد خوارزمشاه وهدده بانه سوف يؤلب عليه المسلمين ان لم يترك مااحتله من ارض ويكتفي بما كان له من قبل .(١٨) وقد كان رد خوارزمشاه تكش اكثر ازعاجاً عندما ارسل الى الخليفة في نفس السنة مطالباً اياه باعادة بناء دار السلطنة السلجوقية في بغداد حيث انه قادم اليها لكي يضع يده عليها(١٩) ولما لم تُجدِ تلك الحرب الكلامية بالنسبة للناصر فانه عمد الى اسلوبه السياسي المعهود ، وذلك بان حاول تمزيق جبهة خوارزمشاه الداخلية باستمالة بعض ولاته وتأليبهم عليه ، ثم عرج على ماهو ادهى بان حاول تحريض سلطان الغوريين ، غياث الدين الغوري ، لكي يهدد بلاد خوارزمشاه ويضغط عليها من جهة الشرق ، فاستجاب الغوري ، وعلى الرغم من انه لم يقع صدام بين الطرفين ، فان خوارزمشاه اضطر الى تاجيل تحركه نحو بغداد ، وساد على اثر ذلك هدوء وسلام نسبي بين الخلافة وبين الخوارزميين الذين انشغلوا بمشاكلهم الشرقية قرابة ثلاث سنوات ، خلالها حاول الخليفة استمالة خوارزمشاه .(٢٠) ولم يحدث مايعكر صفو تلك العلاقة حتى وفاة تكش عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م .(٢١)

خلف علاءالدين محمد والده تكش بعد وفاته على قيادة الدولة الخوارزمية ، ولم يحصل في البداية اي تغيير في العلاقة الهادئة والسلمية بين الخوارزميين والخليفة الناصر حتى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، كما ان مراسلات ودية جرى تداولها بين خوارزمشاه الجديد والخليفة(٢٢) ولا يبدو ان سبب ذلك الهدوء تغيّرٌ في سياسة الخوارزميين تجاه الخلافة العباسية بقدر ماهو نتيجة لانشغال خوارزمشاه علاءالدين محمد بالقضاء على تهديدات الدول الشرقية والقبائل التركية لحدوده الشرقية فقد دخل معها في صراعات عديدة كانت حصيلتها خروجه منها رابحاً في النهاية . لقد وصلت الدولة الخوارزمية اوج اتساعها في عهد خوارزمشاه محمد هذا الذي حكم احدى وعشرين سنة (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م ـ ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) ، فقد تمكن من اخضاع بخارى وسمرقند وغزا اراضي القره خطائيين واحتل عاصمتهم ـ اوترار ـ واستحوذ على القسم الاكبر من بلاد فارس سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، ثم دخل افغانستان سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وقاتل الغوريين واستحوذ على عاصمتهم غزنة .(٢٣) وبهذا بلغت الدولة غاية اتساعها فقد اصبحت حدودها تمتد من العراق غرباً الى حدود الهند شرقاً ، وبحر اورال وقزوين شمالاً والخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً .(٢٤) وعندما تم كل ذلك لخوارزمشاه فانه التفت الى دار الخلافة يبحث عمّا يكلل به كل انجازاته . وهو فرض سيطرته على الخلافة واخذ الخطبة له في بغداد ، وكما

معاونته ضد طغرل مقدماً بدل ذلك طاعته واستعداده للتصرف على وفق مشيئة الخليفة .[٩] وبهذا فقد واتت الفرصة الخليفة لكي يضرب السلاجقة ببعضهم فيضعفهم جميعاً ويتخلص من تجاوزاتهم اولاً ويمنعهم من تكوين قوة واحدة قد تؤذي مركزه وتطالبه بالمهين من التنازلات . كما انها فرصة لازالة بقية نفوذ السلاجقة وربما للسيطرة عليهم والتحكم في ماهو بايديهم من الاقاليم الشرقية . ومن الخير له ان يعين الاتابك الذي بدا مستعداً لتقديم التنازلات المغرية على ان يقف الى جانب سلطان غرّشاب ذي طموحات توسعية واحلام باعادة مجد سلطنة السلاجقة الذي كاد ان يولي . ومما زاد من جعل الخليفة يتخذ جانب الاتابك قزل هو تطاول طغرل على الخليفة في السنة نفسها ، ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، بارساله رسالة اليه يخبره بضرورة اعمار دار السلطنة السلجوقية في بغداد لكي يقدم اليها ويسكنها . فكان رد فعل الخليفة ارجاع رسول طغرل دون جواب وهدم دار السلطنة عن بكرة ابيها .[١٠] ثم المسارعة لمعاونة قزل ضد طغرل،وفعلاً فقد تمكن قزل بعد خوض عدة معارك مع طغرل هنا وهناك في همدان والري واذربيجان من التغلب عليه واسره وسجنه في احدى قلاع اذربيجان وتمكن من حكم البلاد نيابة عن الخليفة وربما فكر في اخر ايامه بالخطبة لنفسه بالسلطنة في همدان ولكنه مات قبل ان يحقق ذلك[١١]

ترك موت قزل فراغاً ملاته الصراعات بين الاتابكة لحكم بلاد سلاجقة العراق ، وفي خضم الفوضى تمكن طغرل بن ارسلان من الهرب من معتقله في اذربيجان وبدأ على الفور بتكوين جيش له ، فجمع حوله الامراء وقضى على معارضيه واخضع متمرديهم ثم استقر في همدان ، ومن ثم عمد الى تقوية مركزه وبسط نفوذه على المدن المجاورة لهمدان منذ سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م .[١٢]

في تلك الفترة كان الخوارزميون بقيادة علاءالدين تكش قد وسعوا بلادهم واروا قاب قوسين من حدود سلطان سلاجقة العراق طغرل ، ومن هنا فقد اصبحوا شغل طغرل الشاغل ، فقد بدأ اعداء طغرل باللجوء الى كنف علاءالدين تكش محاولين تأليبه ضد طغرل . وقد جرى الصراع بين الاثنين على الري في السنتين ٥٨٩ هـ ـ ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ ـ ١١٩٤ م تمكن خلالها طغرل من التغلب على جيش علاءالدين تكش مرتين متواليتين . فصمم على الانتقام ، وزاد من تشجيعه على حسم امر طغرل مراسلة الخليفة الناصر له وشكواه من تصرفات طغرل وطلب منه التوجه بنفسه للقضاء عليه ، واعداً اياه في منشور ارسله اليه بانه اذا ماتغلب على طغرل فسيقطعه جميع البلاد التي كانت بيد الاخير .[١٣] وهكذا فقد اراد الناصر ، كما هي سياسته دائماً ، ضرب اعدائه ببعضهم بالتنويه باعطاء بعض المكاسب

سلاجقة العراق قد ازدادوا عدداً وازدادوا ضعفاً كما ان سيطرة اتابكتهم عليهم بلغت حداً لم تكن قد بلغته من قبل ، واصبح السلاطين مجرد ادوات في ايديهم يأتمرون بامرهم وينفذون وصاياهم . فبعد موت السلطان محمد بن السلطان محمود ـ وهو الذي حاول محاصرة بغداد زمن المقتفي ـ برز احد الاتابكة وهو شمس الدين ايلدگز مملوك السلطان مسعود ومنشيء اتابكية اذربيجان (٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ـ ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م) . لقد كان هذا اتابكاً ووصياً على ارسلان شاه بن طغرل ابن السلطان محمد فتمكن بقوته من جعله سلطاناً على سلاجقة العراق وجعل مركزه عاصمتهم همدان . ولم يكن ارسلان هذا سوى العوبة بيد الدگز الذي زاد من تعزيز موقع اولاده بان قدمهم في الدولة ليضمن مستقبلهم مع السلطنة فعين ابنه ـ جهان بهلوان ـ حاجباً لارسلان ،(٧) وبهذا فانه ماان مات ايلدگز حتى حل جهان بهلوان محله ومارس سيطرته على ارسلان شاه ، ولكن يبدو ان الاخير كان قد كبر وبدأ يفكر بالمشاركة في تصريف الامور ، ولم يكن ذلك ليريح جهان بهلوان فقام بالتخلص منه وعين محله ابنه طغرل الثالث وهو طفل صغير تسهل السيطرة عليه « فكانت الخطبة له في البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شيء وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان »(٨) . وقد قوي امر جهان بهلوان وامتد نفوذه واصبح حاكماً دون منازع على بلاد الجبل والري واصفهان واذربيجان وادان وغيرها من البلاد وبقي على قوته تلك حتى وافاه اجله سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ليخلفه اخوه ـ قزل ارسلان ـ الذي كان جهان قد مكّن له في دولته متبعاً منهج ابيه في تقديم افراد العائلة في امور الدولة حتى تبقى الامور بايديهم بعد وفاة كبيرهم .

لم يكن الخليفة الناصر منذ خلافته سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م حتى سنة وفاة جهان بهلوان قد اصطدم بالسلاجقة او اتابكتهم ، وربما كان ذلك لعدم تجرئهم عليه او لانه لم يكن ساعد الخليفة نفسه قد اشتد بعد ليواجه هذا الاتابك القوي . الاّ انه سرعان مابدأت المشاكل بعد وفاة جهان . وذلك لان طغرل بن ارسلان شاه السلطان السلجوقي الرمزي الصغير ، الذي كان في عهدة جهان ، لم يعد صغيراً جداً وعندما حاول قزل ارسلان سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م استلام قياده ابى ذلك وبدأ بالتفكير باحياء قوة السلطنة السلجوقية والتخلص من وصاية الاتابكة الثقيلة ، فاختلف مع قزل ارسلان ، وبدأ يجمع حوله جموع الجند والامراء وفرض سيطرته على البلاد عندما انسحب قزل الى اذربيجان وارسل الى الخليفة الناصر يطلب منه

(*) راجع عن اتابكية اذربيجان التي ورد ذكرها في الفصل السابق

(٣)

آخر الخلفاء وسقوط الخلافة

ـ الظاهر بأمر الله :

جاء بعد الناصر لدين الله الذي توفي سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م الى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله ، أبو نصر محمد ، وهو في الثانية والخمسين من العمر ، ولم تطل خلافته فقد توفي بعد تسعة أشهر وبضعة أيام . وقد وصفهُ كبار المؤرخين بالعدل والاحسان ، حتى قورن بالعمرين ، عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز (رض) ويبدو انه حاول اجراء بعض الاصلاحات الاقتصادية ذات المردودات الاجتماعية ، كاطلاقه المكوس واعادة ماكانت الدولة قد صادرته من الأفراد الى أصحابه ، واعادة نظام الخراج القديم في جميع العراق مع الأخذ بنظر الاعتبار التطورات الجديدة في الدولة ومستوى انتاجية الأرض ، كما قام بتأدية الديون عمن عجز عن ادائها وأحسن الى العلماء والفقراء ، وضبط الأوزان ومنع التلاعب بها ، فضلاً عن انه قام بمنع التجسس على الناس .(٧٤) وكان يعتقد بضرورة تنفيذ الاصلاحات وذلك بقوله ، « ليس غرضنا ان يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل انتم الى أمام فعال احوج منكم الى أمام قوال » . وربما بدرت منه محاولة اجراء تغيير اداري وسياسي عندما هدد ولاته اذا ماخرجوا عن الحق وافسدوا . وقد اعتقد بعضهم « انه لو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيراً على يديه » .(٧٥)

ـ المستنصر بالله :

خلف الظاهر بعد وفاته سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م على خلافه الأمة ابنه المستنصر بالله ، أبو جعفر المنصور . كانت فترة خلافه هذا الرجل أطول من فترة والده بكثير ، فقد حكم مدة سبعة عشر عاماً ، وقد اتصف بصفات طيبة ، منها الكرم والشهامة . وربما كان من أخلد مآثر هذا الخليفة قيامه بانشاء المدرسة المستنصرية المشهورة التي قال عنها ابن واصل الحموي وهو مؤرخ معاصر « مدرسة ما بني على وجه الارض احسن منها ولا اكثر منها وقوفاً »(١٦) وقد تحسنت في عصره الادارة . وربما يعود بعض الفضل في ذلك الى وزيره الشهير ابن الناقد ، أحمد بن محمد . ولكن يبقى ان هذا الخليفة لم يفعل مافيه الكفاية من أجل الوقوف بوجه الخطر المتعاظم الذي بدأ يهدد الأمة منذ عصر الناصر ، وهو الغزو المغولي ، على الرغم مما ذكر من

انه « استخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه ولا جده » .(٧٧) فقد بقيت الخلافة ضعيفة عسكرياً ، ولم تتمكن من توحيد قوى العالم العربي الاسلامي . وانما ازدادت في هذه الفترة صراعات الكيانات السياسية في داخل الوطن الكبير . كما افتقدت الساحة القائد العسكري الشجاع ذا الطاقات القيادية القتالية التي تمكنه من تقدم صفوف المجاهدين ، وتجميع المتخاصمين حوله والأصدقاء على حد سواء .

ـ المستعصم بالله :

بعد وفاة المستنصر سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، أصبح ابنه المستعصم بالله ، أبو أحمد عبدالله خليفةً . وله من العمر واحد وثلاثون سنة . وعلى الرغم من انه كان ورعاً متديناً الا انه كان أيضاً « لين الجانب سهل العريكة مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور » .(٧٨) وكنتيجة لضعف شخصية الخليفة فقد كثر الطامعون في الدولة وازداد المتجاوزون ، وعند غياب السلطة الحدية الجادة تزداد حرية المتغطرسين الأقوياء على حساب الضعفاء ، ويتعدد الاشقياء وتتنوع العصابات والطوائف . وقد أساء احد أبناء الخليفة ، وهو الابن الأكبر أحمد ، بتدخله في مشاكل الصراعات بين القوى الادارية في الدولة التي تجاذبت أطراف السلطة نتيجة ضعف الخليفة ، كلٌ يرغب في تحقيق مصالحه ، كالوزير ابن العلقمي الذي كاتب المغول وخان الخليفة كما تذكر المصادر ، أو الدويدار قائد العسكر السيء التصرف وغيرهم . وقد تحزب الناس لهذا أو ذاك ، واستغل المرجفون فرصة جهل المتصرفين في الأمور وغياب القبضة القوية والعين الساهرة فروجوا للفرقة وأساءوا الى الدين باستغلاله ، فنشبت الطائفية مما أدى الى ان يدب الضعف والوهن الى بنية الجبهة الداخلية للدولة العباسية ، فانحلت ووقفت عاجزة أمام الغزو المغولي الذي اجتاح بلدان الخلافة ، ويقال بأن رد فعل الخليفة السلبي كان ملموساً عند سماعه بنائع تحركات المغول « فلم يحرك ذلك منه عزماً ولانبه منه همةً .. ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك » .(٧٩) وهكذا فإن انتهاء الخلافة العباسية في بغداد على يد الغزاة المغول حصل في عهد هذا الخليفة الذي حكم ستة عشر سنة انتهت بمقتله على يدهم بعد أن دخلوا بغداد في صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

المغول وسقوط الخلافة :

لا بد لنا ونحن ندرس الفترات الأخيرة من تاريخ الدولة العباسية ان نتعرف على شعب اسيوي ، قطن في أواسط آسيا على حدود الصين ، عرف ببداوته وقلة حظه من الحضارة ، ولكنه لعب دوراً مهماً جداً في تكوين أحداث القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي .

أصل المغول :

ليس من السهل تحديد أصل المغول . وقد ذهبت المصادر العربية القديمة الى انهم من الترك(٨٠) . ويمكن القول بأن المغول كانوا قبيلة في وسط مجموعة من القبائل المتعددة ، أطلق على جميعها اسم المغول عندما تمكن واحد من أبناء هذه القبيلة من فرض نفوذه على المجموعة بكاملها ،(٨١) وان هذه المجموعة من القبائل جميعها من الترك .(٨٢) ولدى المغول ـ ويسمون أحياناً بالتتر أو المغل ـ صفات جسمية متنوعة جداً ولذا فلا يمكن اعتبارهم جنساً متميزاً ، ولكن يمكن عدهم مجموعة بشرية مرتبطة مع بعضها بلغة مشتركة وبتراث بدوي مشترك .(٨٣)

موطنهم :

ان الموطن الأصلي للمغول هو المنطقة الهضبية ، التي تسمى بهضبة منغوليا التي تمتد في وسط آسيا الى الجنوب من سهول سيبريا والى الغرب من منشوريا ، وشمال صحراء كوبي ومرتفعات التيبت ، والى الشرق من تركستان .(٨٤) ويتميز مناخ هذه الهضبة بكونه مناخاً قارياً قاسياً ، ففيه الحرارة العالية جداً في الصيف ، وهو فصل قصير ، تصل درجة الحرارة فيه الى ٦٠° مئوية . والبرودة القارصة الشديد في فصل الشتاء الطويل ، حيث تتجمد الأنهار ومياه المنخفضات وتكثر العواصف الثلجية .(٨٥)

في وسط هذه الظروف عاش المغول على شكل قبائل بدوية متنقلة ذات حضارة محدودة . وكانت الأسرة هي الاساس في النظام القبلي ، وترتبط أفراد القبيلة رابطة الدم ، أي تسلسل أفراد القبيلة الواحدة من أب واحد تحمل القبيلة جميعها اسمه اسماً لها . وكل رجل في القبيلة ، اذا كان قادراً على ركب الحصان ورفع السلاح فإنه يصبح محارباً مستعداً دائماً اذا مااستدعتهُ ظروف القبيلة . وقد امتهنت هذه القبائل الرعي تمارسه أثناء تنقلها في أنحاء الاقليم السابق الذكر . كما مارست هذه القبائل الصيد كوسيلة مهمة للعيش . ورغم ان بعض القبائل مارست الزراعة الّا ان ذلك كان

بشكل محدود جداً ، نظراً لأن طبيعة البيئة الجغرافية ، المناخية والتضاريسية ، لم تكن لتساعد كثيراً على ممارستها .(٨٦) لقد كانت القبائل المغولية هذه غير مترابطة ولا تشدها دولة واحدة الى بعضها ولا يحكمها حاكم أو ملك واحد . الا ان بعض التجمعات القبلية المتميزة كانت أحياناً تفرض سيطرتها على بقية القبائل . ويجمع هذه التجمعات القبلية ائتلافات دائمة التغير والتبدل ، وكانت المسائل الأساسية التي تشغل هذه الائتلافات القبلية هي موضوع السيطرة على القبائل المتفرقة ، وملكية القطعان ورعيها ، ثم السرقة التي تحصل في الأوساط القبلية .(٨٧) وعندما كانت القبائل تتوحد في ائتلاف ما ، أو عندما يتمكن رئيس قبيلة ما من فرض سيطرته على القبائل الاخرى ، فإن مقاتلي القبائل هذه يتوحدون في تنظيم عسكري واحد في أمره هذا القائد ، كما حصل عندما سيطر جنكيزخان على مجمل القبائل المغولية وامتلك قيادتها .(٨٨)

جنكيزخان :

ولد تيموجين ـ وهو الاسم الأول لجنكيزخان ـ سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م في واحدة من تلك القبائل المغولية الآنفة الذكر وفي خضم ظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية . وقد كانت تلك القبيلة ذات ماضٍ مهم وقوة متميزة .(٨٩) فقد تيموجين هذا أباه وهو في الثالثة عشر من العمر ، فساء وضعه الاجتماعي القبلي ، وذلك لأنه بموت والده انفك عرى اتحاد قبلي كان أبوه يتزعمه ، وحاولت قبيلته التخلص من الطفل الصغير واتخاذ زعيم آخر . ولكن صلابته واصرار أمه مكناه من ان يثبت ويمسك زمام قبيلته ويضمها الى بعضها الى ان بلغ سن الرجولة فبدأ باظهار خواصه المتميزة بوصفه محارباً قوياً . وسياسياً متمكناً ، يحسن تشتيت أعدائه والتغلب عليهم . ويهتم بتفاصيل الأمور ويفهم طبائع الرجال . وقد انصبت جهود جنكيزخان العسكرية الأولى على احتواء القبائل البدوية في منغولية وتركستان تحت سيطرته وقد نجح في ذلك بحدود سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م . واتخذ لنفسه مجموعة منتخبة من بين محاربي المغول وجعل منهم قواده الذين اعتمدهم في حروبه الشرسة مع الشعوب المجاورة .(٩٠)

وبازدياد قوة جنكيزخان فإنه بدأ يبحث عن متنفس لقوته ومخرج من ظروفه البيئية الصعبة فاصطدم بامبراطور الصين الذي حاول التدخل في شؤون المغول الداخلية ، وذلك سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، فحقق بعض الانتصارات عليه واحتل بعض

جرت الامور على مايرام بين المغول والخوارزميين حتى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م حيث قام والي خوارزمشاه في مدينة ـ اوترار ـ آخر ولايات خوارزمشاه فيما يجاور بلاد جنكيزخان، بقتل مجموعة من التجار من اتباع جنكيزخان بامر من خوارزمشاه. فاستفز ذلك المغول، وازدادت رعونة خوارزمشاه، عندما عامل رسل جنكيزخان بخصوص مقتل التجار بشكل سيء جداً، مما اعطى المبرر لجنكيزخان لغزو بلاد خوارزمشاه. فسار على التوالي الى سمرقند فاحتلها ثم الى بخارى فاباد اهلها بعد أنْ استولى عليها ثم احرقها، ومن بعد ذلك عبر نهر جيحون بجيشه كله «فلم يشعر خوارزمشاه الا وقد صاروا معه على ارض واحدة»[٩٥]، ففر من امامهم الى نيسابور فتبعه المغول اليها، ولم يتوقفوا في الطريق للنهب والسلب كعادتهم بل جدّوا في المسير وراءه كي لايتيحوا له فرصة جمع شتات جيشه والاستمداد لهم، فاضطر الى الانسحاب من مكان الى اخر، فكان كلما رحل من مكان نزلوا فيه بعده مباشرة حتى انهكوه وايأسوه فلجأ منهزماً من همدان الى جزيرة في بحر قزوين، فتركوه حيث قتله الفشل فيها بعد شهر واحد من نزوله بها سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م.[٩٦] تاركاً امر ماتبقى من بلاده بيد ابنه جلال الدين منكوبرتي.[٩٧]

لقد ترك فوز المغول على علاء الدين محمد، والقسوة المفرطة التي مارسها الغزاة ضد اهل البلاد التي دخلوها، رعباً واضطراباً لدى السكان في المناطق الشرقية من العالم الاسلامي. وذكر ابن الاثير بـ ابيات هذا الحدث بشكل يعكس مدى الاثر الذي تركه في النفوس، وتوقعات نتائجه منذ فترة مبكّرة. يقول «ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة .. لقد بقيتُ عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فانا اقدم اليه رجلاً واوخر اخرى فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فياليت امي لم تلدني ويالبتني مت قبل هذا وكنت نسّياً منسياً ..»[٩٨] ثم يصور باسلوب غاية في الاثارة همجية تلك الاقوام المغولية ويلقي بالتبعة على خوارزمشاه كسبب للكارثة: «فان هؤلاء التتر انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه ان خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وافناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم ـ اي من التتر ـ لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها»[٩٩]. ولم ينس ابن الاثير ان يصب جام غضبه على الخليفة العباسي الناصر الذي رأى بانه لم يقم بما يستوجبه الظرف من استعدادات مطلوبة.[١٠٠]

لم يتوقف المغول عن تقدمهم بعد هزيمة علاءالدين محمد بل جاسوا في البلاد يحتلون وينهبون، فاستولوا على مازندران والري وهمدان، ثم صعدوا الى اذربيجان

أراضيه مما وراء سور الصين . ثم استمر القتال خلال السنوات التالية الى ان تمكن جيش جنكيزخان من الانتصار في معركة فاصلة على امبراطور الصين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، على أثرها سقطت بكين بيد جنكيزخان .(٩١)

التفت جنكيزخان بعد ذلك صوب الغرب ، فدخل في حروب مع ملك القره خطائيين انتهت سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م بالقضاء على تلك الدولة تماماً . وبانتهاء تلك الدولة ـ دولة القره خطائيين ـ تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التي كانت خاضعة لها . فضلاً عن ذلك فقد اصبح المغول بقوتهم المتزايدة المخيفة على حدود الدولة الخوارزمية ، ولم يعد هناك مناص من ان تضطرم الحرب بين الفئتين التوسعيتين .(٩٢)

ـ دخول المغول ارض لخوارزميين :

لقد كان كل من المغول ، بعد جملة من الانتصارات ، والخوارزميين بحدود سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م وقد بلغوا غاية توسعهم ، يمتلكان قوة كبيرة وحيوية تجعل كل جانب يعتقد بانه سيتمكن من الفوز على الاخر في حالة مواجهة حربية . وكان قائداً الدولتين ، جنكيزخان وخوارزمشاه علاءالدين محمد ، كلاهما من قساة الطباع ، ذوي الاطماع التوسعية ، وكلاهما لم يكونا مجرد ورثة للممالك التي يحكمونها بل ان كليهما عمل على استحصال كل او معظم مابيده من البلاد بجهوده العسكرية الخاصة ولكن مع هذا يبدو ان الطرفين ، وخاصة المغول ، حاولا التريث قليلاً قبل الاقدام على مواجهة حاسمة .

ان جنكيزخان ، وهو سياسي قبل ان يكون محارباً قاسياً ، لم يشأ عندما جاور الدولة الخوارزمية ان يجاهر لسلطانها علاءالدين محمد بالعداء ، بل حرص على مسالمته في باديء الامر وعلى خلق الوئام والوفاق معه . وهدف الى عقد معاهدة تجارية معه والى تبادل الرسل والسفراء . وتم شيء من ذلك بين الطرفين سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ، ولكن الاجواء لم تخل من توتر وانفجار مرتقب .(٩٣) ويبدو ان خوارزمشاه كان عالماً بمجريات الامور في بلاد جنكيزخان وباعماله الحربية في الصين متوجساً منها ، وعندما سمع بسقوط بكين بيد المغول ارسل وفداً للتأكد من ذلك ، عاد بعده ذلك الوفد بتقرير مروع من خلال مشاهدات لافعال المغول الوحشية في الديار التي مروا بها .(٩٤)

وملكوا عاصمة الاقليم ، مراغة ، وغيرها ، ثم عرجوا على بلاد الكرج في الشمال فخربوها ، ووصل قسم منهم في صعوده الى بلاد القفجاق في روسيا وكادوا يبيدون مقاتلي تلك البلاد ، واستمروا في هجوماتهم تلك على مدى اربع سنوات في ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ـ ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، يتقدمون وينسحبون ، يتفرقون ثم يتجمعون ، يعودون الى بلادهم ثم ينطلقون ، وهم في كل هذا وذاك ينشرون الفوضى والخراب ويقتلون الناس .(١٠١)

ـ المغول وجلال الدين منكوبرتي

حل جلالالدين منكوبرتي محل والده المنهزم خوارزمشاهاً في تحمل مسؤولية الدفاع عمّا تبقى من دولة الخوارزميين ومحاولة استرجاع ماانتهبوه منها . فغادر الجزيرة التي كان فيها مع والده في بحر قزوين ونزل برخوارزم سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وبدأ بتجميع جيش له ممن تبقى من انصار ابيه .(١٠٢)

لقد كان جلالالدين هذا رجلاً جريئاً ، شديد المراس ، قوي الشكيمة ، اصلب عوداً من أبيه ، وابعد منه عن صحبة اليأس . ولكنه كان فضاً سيء السياسة ، يفتح العديد من الجبهات ويخلق الاعداء ويبعد الاصدقاء . وبنزوله بر خراسان فقد القى بنفسه في وسط جموع المغول يحاول تبديدها بعد ان صلبت شوكتها .

نزل جلال الدين من خوارزم الى غزنة واتخذها قاعدة له ، وتمكن من تجميع جيش جديد بلغ تعداده قرابة الستين الفاً من عساكر ابيه وغيرهم . تمكن بهذا الجيش من الحاق هزيمة اولى بجيش مغولي من اثني عشر الفاً في معركة حاسمة ، والحق هزيمة ثانية بجيش اخر ارسله جنكيزخان اليه بقيادة بعض اولاده . عندئذ قدم اليه جنكيزخان بنفسه مع جيشه ، في هذه الظروف كانت الفرقة قد دبت بين قواد جيش جلال الدين ففارقه بعضهم . ولهذا فقد حاول جلال الدين تلافي لقاء جنكيزخان لحين استكماله اعادة تكوين جيشه ورص صفوفه ، ولكن جنكيزخان لم يمهله وتابع ملاحقته حتى الهند ، وعلى ضفاف نهر السند الصعب العبور لم يتوفر الوقت لجلال الدين العبور بجيشه فاستدار لمواجهة جنكيزخان في معركة إقاسية ، حلّت اثرها الهزيمة بجلال الدين وجيشه ، ولكي لايقع في قبضة اعدائه او يقتل فقد قفز بحصانه من اعلى الضفة الشاهقة الى النهر وعبر الى الهند .

عاد جنكيزخان بعد ذلك الى غزنة فاحتلها وخربها ،(١٠٣) ثم توجه الى موطنه الاصلي منغوليا ، حيث عاصمته قره قورم بعد ان قضى سنتين في الغزو والتجوال ليموت فيها سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م ، ولينصرف المغول الى شؤونهم الداخلية لبعض الوقت .(١٠٤)

ـ جلال الدين يعود ثانية

نجا جلال الدين منكوبرتي من المعركة مع جنكيزخان مع حوالي اربعة الاف مقاتل سار بهم من الهند الى كرمان سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ثم الى اصفهان ، ففارس حيث انتزع هذه المناطق من اخيه غياث الدين الذي كان مسؤولاً عنها من والده . وكان المغول انئذٍ قد انسحبوا بشكل مؤقت من بعض الاماكن التي احتلوها فاستقل فيها بعض الحكام المحليين في خراسان ومازندران والري وبلاد الجبل . فهاجمهم جلال الدين واخذها منهم . ومن ثم تحرش بالخليفة العباسي الناصر ـ كما سبق ذكره ـ فاستولى منه على الاحواز وسار قاصداً بغداد ، ولكنه تركها باتجاه الشمال الى اذربيجان فاستولى عليها ودخل بعد ذلك في صراعات مع سلاجقة الروم في اسيا الصغرى سنة ٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م واحتك كذلك بالايوبيين ونازل بعض مدنهم كاخلاط واخذ بعض بلاد الكرج في الشمال .(١٠٥) وهكذا فقد اعاد جلال الدين تكوين جزء من دولة ابيه السابقة ولكنه لم يعد يمتلك جيشاً منظماً مترابطاً شديد الولاء ، كما انه لم يحسن التقرب الى الخليفة الناصر ولا الى السلاطين والامراء الاخرين في انحاء البلاد ، وكما يقول ابن الاثير « كان جلال الدين سيء السيرة قبيح التدبير لملكه ، لم يترك احداً من الملوك المجاورين له الاّ عاداه ونازعه الملك واساء مجاورته .. فكل من الملوك تخلى عنه ، ولم يأخذ بيده »(١٠٦) ولا ندري مالذي دفعه الى انتهاج مثل هذه السياسة الضّارة ، اهو دافع الثأر الذي حمله في صدره ممن لم يقف مع والده ومعه في محنتهما من امراء وملوك المسلمين ، ام انها محاولة جلال الدين الاستحواذ على امكانيات هذه البلاد لكي يسخرها جميعاً بنفسه في حرب اخيرة مع المغول ، ام انه كان يفكر بايجاد مملكة جديدة له بعيداً عن ميدان نشاط المغول في شرق ايران ؟!

حيث لحقوه اليها واخيراً وصل الى ميافارقين وحاول الاتصال بالملك الاشرف الايوبي . ولكن احد قطاع الطرق عثر عليه وقتله هناك سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م وبذلك انتهى امره وانتهت معه الدولة الخوارزمية .(١٠٩)

ـ المغول والخلافة العباسية

تبع هزيمة جلال الدين منكوبرتي حملات من المغول على البلاد المختلفة المجاورة الى الشرق والشمال من العراق ، وبهذا فان الخلافة العباسية اصبحت في مواجهة مباشرة مع الغزوات المغولية .

ولم تكن الخلافة ، وخاصة في زمن الناصر ، قد اتمت استعدادات كافية لمواجهة مثل هذا الوضع ، وصحيح ان الخلافة ذاتها كانت محدودة القدرة على التصرف لما حاولت ان تكبلها به السيطرة البويهية ومن بعدها السلجوقية ، وان جيشها لم تتح له الفرصة المناسبة كي ينمو وتستقر اسسه رغم الجهود الايجابية لخلفاء كالمسترشد والراشد والمقتفي ، الا انه مع ذلك فان الخليفة كان يستطيع العمل على توحيد الجبهة العربية الاسلامية ولو نسبياً بما يمتلكه من سلطة روحية وهيمنة معنوية تدين لها بعض اطراف الدولة بالولاء وتوليها اهتماماً وتعطيها قيمة .

وكان المغول قد تعرضوا لحدود العراق منذ سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م بعدما قضوا على خوارزمشاه علاء الدين محمد ، الا انهم منذ سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م وما يليها فانهم اصبحوا اكثر قرباً وطروقاً لارض العراق ، ففي عامي ٦٣٢ ـ ٦٣٣ هـ / ١٢٣٤ ـ ١٢٣٥ م هاجموا اربيل ، وفي السنة التي تلت ذلك التاريخ بلغوا مدينة سامراء ثم عادوا عنها .(١١٠)

استعدادات الخليفة المستنصر :

لقد كان رد فعل الخليفة العباسي انذاك ـ المستنصر بالله ـ معقولاً وايجابيا الى حد ما ، ولكنه متأخر وغير كامل الفعالية . فقد قام باعلان الجهاد اثر انعقاد مؤتمر للعلماء المسلمين الذين افتوا بان الغزو في سبيل الله خير من الحج الى بيت الله . فتجمع للخلافة جيش كبير . تمكن به من دحر قوة المغول التي قصدت سامراء ـ كما ذكرنا اعلاه ـ سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م ، بالقرب من تكريت وتم فك

ـ نهاية جلال الدين ودولة الخوارزميين على يد المغول :

لم ينقطع المغول عن غزو خراسان والري وما جاورها من البلاد ونهبها خلال الفترة التي كان جلال الدين يقوم فيها بجهوده الحربية الخاصة في الغرب . ولكن تلك الغزوات كانت سريعة ومؤقتة ، وقد اشتبك معهم جلال الدين في بعضها وكان الظفر غالباً حليفه [١٠٧] ومع هذا فان جلال الدين لم يغير سياسته في الاعتداء على الامراء والملوك المجاورين ، كما انهم هم ايضاً لم يتمكنوا بشكل او بآخر من اقناع جلال الدين بتوحيد جهودهم للوقوف بوجه المغول ، وحتى الخليفة لم يقم بمحاولة واضحة وجدية في هذا السبيل ، ويظهر من خلال الاحداث وتطورها بان جلال الدين منكوبرتي كان يمكن يقف بوجه المغول ، لما تمتع به من صلابة وقسوة وعدم اليأس وتكرار المحاولة من اجل الوصول الى الهدف . ولم يكن ايٌّ من ملوك الدويلات المقسمة المشطرة في الوطن العربي والعالم الاسلامي ولا حتى الخليفة العباسي الذي انحسر نفوذه في العراق العربي فقط ليستطيع التصدي لقوة المغول وحيداً ، وهكذا ، فعندما قدم المغول اخيراً سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م كان جلال الدين وحده في مواجهتهم ، وقد اضعفته الحروب المتعددة وفتت في عضد جيشه ، فوجه دعوته لامراء وملوك الاطراف للوقوف معه صفاً واحداً بوجه الخطر قائلاً « ان جيشاً جراراً من عساكر التتار كانه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا ، فاذا ترك وشأنه فسوف لاتصمد امامه القلاع والامصار ... فاذا هزمتُ وخلا مكاني من بينكم فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو . اذن فانا لكم بمثابة سد الاسكندر ، فليسارع كل منكم الى امدادنا بفوج من الجنود ، حتى اذا ماوصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم وفتّ في عضدهم بينما يتشجع جنودنا وتقوى قلوبهم »[١٠٨] . ولكن لايبدو ان نداء جلال الدين لقي اذناً صياغة ، ولا يبدو بان الخليفة وملوك وامراء الدويلات والاطراف كانوا يعتقدون ان المغول يمكن ان يصلوا الى بلادهم ، فلابأس اذاً ان ينشغل جلال الدين منكوبرتي بهم فينتاصون من اعتداءاته المتكررة وينصرفون الى مشاكلهم ومنافساتهم المحلية .

ولكن المغول داهموا الري وهمدان هذه المرة (سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م) وعرجوا على اذربيجان ، فلم يتمكن جلال الدين من صدهم ، واضطرب جيشه نتيجة خلافات في داخله بين قادته ، وهرب منكوبرتي امام المغول ، فتعقبوه الى مراغة واحتلوها ثم الى اخلاط ، فالى مدن اخرى حتى وصل آمد وهو يحاول مراسلة الخليفة كي يدخل بلاده ويستحثه على قتال المغول . ولكنه اضطر الى ترك آمد

اسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في ايدي المغول ، ولجأ الخليفة اثر ذلك الى اقامة الاستحكامات حول بغداد خشية عودتهم . وفعلاً عادوا في السنة التالية وعند خانقين تصدى لهم جيش الخلافة ولكنه انهزم ، وقتل عدد كبير من افراده وعاد الباقون الى بغداد كما رجع المغول ايضاً .(١١١) وبدرت من الخليفة كذلك محاولة للم شمل الامراء الايوبيين وسلاجقة الروم واستنفر عرب البوادي ودعاهم للجهاد واوقف الاموال لتجنيد الجيوش التي بدأت بالتجمع في بغداد حتى قيل ان عددهم بلغ مئة الف مقاتل . ولكن هذا المبادرات التي لم تحقق ترسخاً في مقومات الدفاع والاستعداد الكافي بسبب عدم تكاملها ، ذهبت ادراج الرياح عندماً توفي المستنصر سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وجاء بعده ابنه الخليفة المستعصم الذي تحدثنا عن ضعفه ، فقبل مشورة اصحابه السيئين فقام بتسريح الجند ، وايقاف صرف رواتبهم ، واسقاط اسمائهم من دواوين العرض ، فترك بعضهم العراق الى الشام ، والتحق اخرون بمناطق اخرى بينما لحت الحاجة على آخرين فلم يجدوا وسيلة للعيش .(١١٢) كما انه تم اقصاء بعض الشخصيات التي عرفت بقدراتها ورغبتها في تقوية الجيش وقتال المغول بسبب تخوف بعض رجال الخليفة كالدويدار والشرابي(١١٣) الذين اصبحا مسؤولين عن امور الجيش والادارة اثناء فترة خلافة المستعصم .

لقد ساءت اثر ذلك احوال بغداد وكثرت مشاكلها وضعفت حمايتها وازداد عدد المهاجرين اليها من امام غزوات المغول .(١١٤)

ـ هولاكو يتوجه الى بغداد

توقفت غزوات المغول الى حد ما نتيجة للتطورات الداخلية للامبراطورية المغولية . فقد توالى على منصب الخان الاكبر للمغول من بعد جنكيزخان ثلاثة خانات ، كان اخرهم منكوخان الذي حكم من سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ـ ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م . وخلال تلك الفترة حدثت بعض الفوضى والاضطرابات التي تواكب عادة مسألة ولاية العهد واختيار الحاكم الجديد ،(١١٥) والتي اثرت على النشاط العسكري الخارجي للامبراطورية .

وما كاد منكوخان يتسلم زمام دولته ويقضي على المنافسات الداخلية وعناصرها وخصومه ومنافسيه حتى قام بالتوجه من جديد نحو هدف الامبراطورية وهو التوسع . فناط باخوته مهمة قيادة عدة جيوش في اتجاهات شتى لإحتلال العالم

ووقع اختياره على اخيه هولاكو كي يقود الحملة المتجهة غرباً الى ارض الخلافة العباسية سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م .(١١٦)

وقد قام منكوخان باتخاذ شتى الاستعدادات اللازمة لتكوين حملته تلك . فضم لهولاكو الكثير من القوات ، وعين له حرساً خاصاً ، وجعل في معيته أسرّ متخصصة باستعمال ادوات هدم الاسوار كالمجانق وزراقات النفط . وارسل المرشدين امام الحملة ليقودوها بسهولة عبر الطرق الى هدفها ، كما بث الجواسيس في البلاد التي ستمر بها الحملة من عاصمة المغول قره قورم الى ضفاف نهر جيجون لكي يمكن تلافي المخاطر والكمائن ان وجدت ، وبعث من يقوم بنصب الجسور على الانهار العميقة التي تعترض خط سير الحملة وضمن التموين الكافي لها من البلاد التي ستمر بها . عندئذ سارت الحملة الكبيرة بقيادة هولاكو على هذه التعبئة تخو مقصدها ، الخلافة العباسية والغرب ، سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م .(١١٧)

وقد سارت تلك الحملة مسافات بعيدة واستغرقت مدة طويلة ، خمس سنوات حتى وصلت الى همدان سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م . وخلال مسير الحملة في ايران قام هولاكو بالقضاء على قلاع الاسماعيلية نهائياً فيها سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م(١١٨) وبذلك زالت تلك الدويلة التي استمرت لمدة مائة واحدى وسبعين سنة اثارت خلالها الفزع في العالم الاسلامي كافة نتيجة ماانتهجه افرادها من جرائم كثيرة ومانشر منتسبوها من افكار باطنية مريبة ، غريبة المصادر .

نهاية الخلافة العباسية

وصل هولاكو وجيشه همدان سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م حيث عسكر فيها قبل اقدامه على خطوته القادمة وهي مهاجمة الخلافة في عاصمتها بغداد .

لقد كانت بغداد انذاك في وضع صعب ، فقد عانت من طوفان كبير في العام السابق . أدى الى غرق الكثير من الاراضي الزراعية وتلف محاصيلها ، كما غرق العديد من دور المدينة .(١١٩) وعجز الخليفة المستعصم ومؤسسته عن اتخاذ سياسات ايجابية لحل مشاكل البلاد . ونتيجة لضعف السلطة ، ومحاباة رجال الدولة الذين حول الخليفة لهذه أو تلك من الفئات ، فقد تفاقمت المشاكل . وازدادت الصراعات بين المحالّ والاحياء ، بعضها ضد بعض . وحتى الجند فكثيراً ما مالأوا فئة ضد

اخرى من الفئات التي اغتذت بالفرقة والانقسام ، وذلك نتيجة سوء قيادتهم وقلة احساسها بالمسؤولية . وانشطرت عناصر ادارة الدولة التي امتلكت مقادير الامور اثر ضعف وانعدام الدور الفعلي للخليفة المستعصم الى فئتين متصارعتين ، احداها يمثلها ابن الخليفة احمد والدويدار وآخرون ، الذين نسوا مسؤولياتهم الحقة وانغمسوا في خلافات داخلية على المصالح الخاصة فاضعفوا الجيش وشتتوا الجبهة الداخلية . والثانية ، ويمثلها وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي ، الذي قام باسوأ عملية خيانية بممالأة المغول ومكاتبتهم وتحبيذ غزو بغداد لهم . وقد اشارت المصادر العربية الى تلك الحقيقة . فقد ذكر ابو شامة المؤرخ الدمشقي المعاصر الذي مات بعد احتلال بغداد بتسع سنوات (سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) بان عملية الاستيلاء على عاصمة الخلافة من المغول تمت « بمكيدة دبرت مع وزير بغداد ابن العلقمي »(١٣٠) وذكر مؤرخون آخرون تفاصيل أوفى عن الموضوع ، فاليونيني (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) في كتابه « ذيل مرآة الزمان » يورد كيف ان الوزير ابن العلقمي كاتب المغول واستدعاهم ، ثم قام باقناع الخليفة بالتقليل من عدد جند الخلافة وتسريحهم ، ومنع الاخبار المحذرة للخليفة من الخطر المغولي من ان تصله من بعض امراء الاطراف .(١٣١) وهكذا فان كل ذلك ادى الى ان تضعف الجبهة الداخلية ويضطرب العسكر وتعم الاعتداءات ويكثر اللصوص وبالتالي تضطرب عموم امور المدينة .(١٣٢)

في الوقت الذي أصبحت الحالة بهذا الشكل ، بدأ هولاكو بمراسلة الخليفة من همذان مطالباً اياه بالاستسلام وهدم حصون مدينته وردم خنادقها والحضور لمقابلته ، وبالطبع فقد رفض الخليفة ذلك ، وتوعد هولاكو باثارة المسلمين ضده ان هو تجرأ على ايذاء الخلافة وطالبه بالعودة من حيث أتى . لقد كان موقف الخليفة هذا في عدم الاستسلام موقفاً مشرفاً ، ولكنه جاء متأخراً ، ولم يكن يرتكز على قوة فعلية رادعة كافية ، وايضا انه كان يستطيع تأليب المسلمين على هولاكو فلماذا لم يفعل منذ سنوات ونوايا المغول معروفة وحملتهم قضت خمس سنوات في الطريق حتى وصلت الى همذان . ويصح القول في هذا الموضع بأن اهمال الناحية العسكرية وما ترتب عنها لا يتحمل الخليفة وحده مسؤوليتها ، بل معه رجال دولته من وزراء وحجاب وامراء جيش وحاشية ، وعلماء عاتقهم جميعاً يقع عبء ماحل بالبلاد . فقد اساءوا تقديم النصح له وهونوا من خطورة الواقع ، أو ثبطوا همته وحبذوا له الاستسلام . ناهيك عن صراعاتهم الشخصية التي مزقت جهاز الدولة وصعبت عملية السيطرة على الامور .(١٣٣)

ولم تسفر الرسائل المتبادلة عدة مرات بين هولاكو والخليفة الا عن نتيجة واحدة وهي تحرك هولاكو صوب بغداد ومحاصرتها . لقد قدم هولاكو قوات كثيرة جداً كما انه استقدم بعض الجيوش المغولية التي كانت في آسيا الصغرى فبلغ عدد جنده حوالي المائتي الف . ونزل هولاكو نفسه في الناحية الشرقية من بغداد . وقد حاول جيش الخليفة بقيادة مجاهد الدين ايبك الدويدار التصدي لهولاكو وجيشه المتجمع ، ورغم انه حقق انتصاراً في البداية على بعض قطعات العدو الا انه عاد فانسحب الى داخل المدينة . عندئذ أحكم حصارها في ٢٢ محرم ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . وحاول المغول تخريب الأسوار وايذاء السكان بأستخدام المنجنيق لرمي الحجارة التي جلبت من منطقة حمرين أو جذوع النخل المقطع وأخيراً في ٤ صفر من سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م خرج الخليفة المستعصم من بغداد مستسلماً بعد ان اعيته الحيلة . واحتل هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسي مع ولده الأكبر وبعض خاصته . وهنا بدت وحشية المغول في قتل الأهلين وتدمير جوانب المدينة الحضارية .(١٣٤) وقد تناقلت مصادرنا المعاصرة لتلك الأيام باسهاب أخبار ذلك الحادث الفاجع الذي انهى الخلافة العباسية في بغداد بعد خمسمائة وأربعة وعشرين سنة من التواصل الحضاري العربي الاسلامي الذي رفد الحضارة الانسانية بوفر من العطاءات والانجازات والقيم .